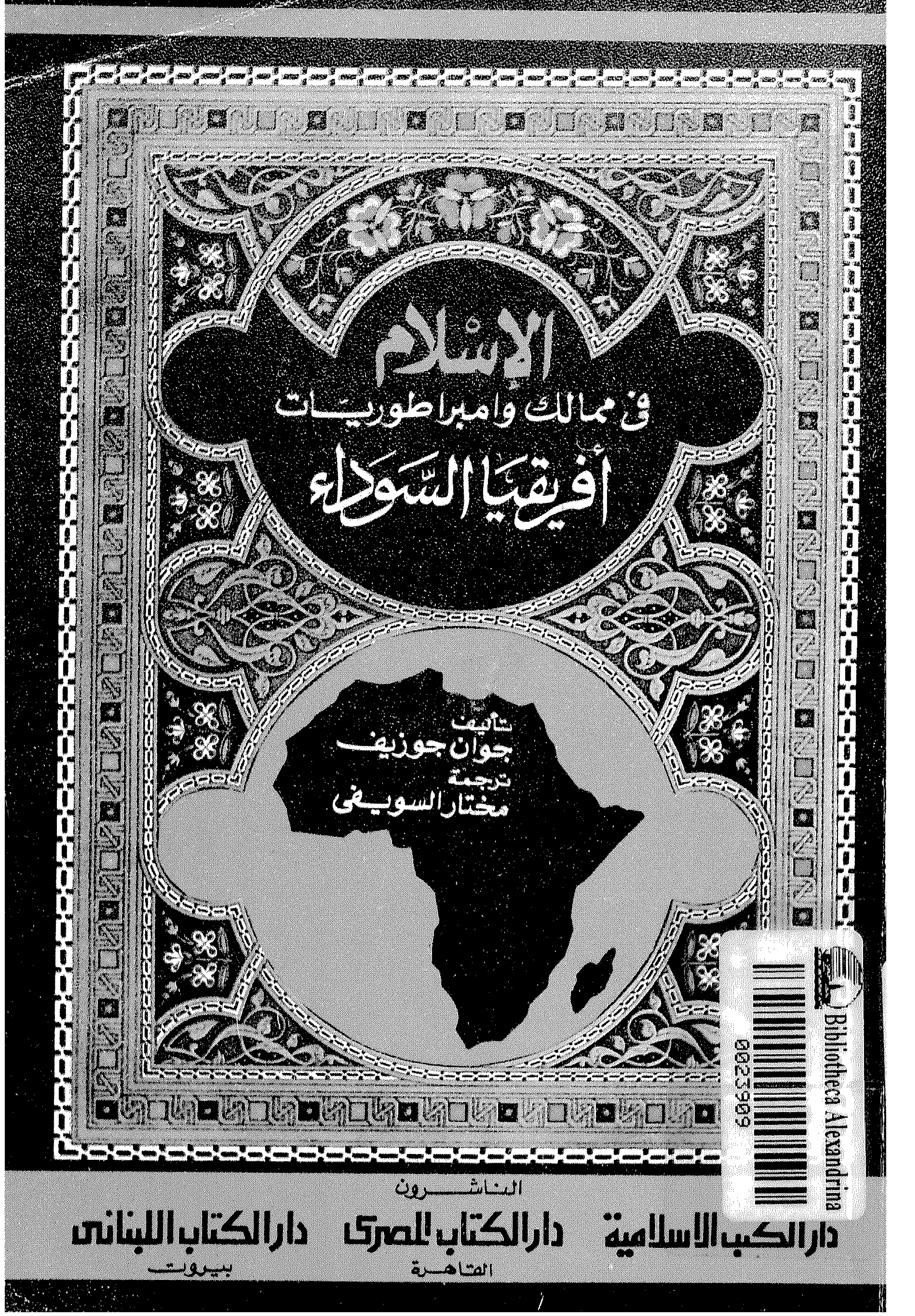


Bibliotheca Alexandrina
0023909

الإسلام

في ممالك وامبراطوريات

أفريقيا السوداء

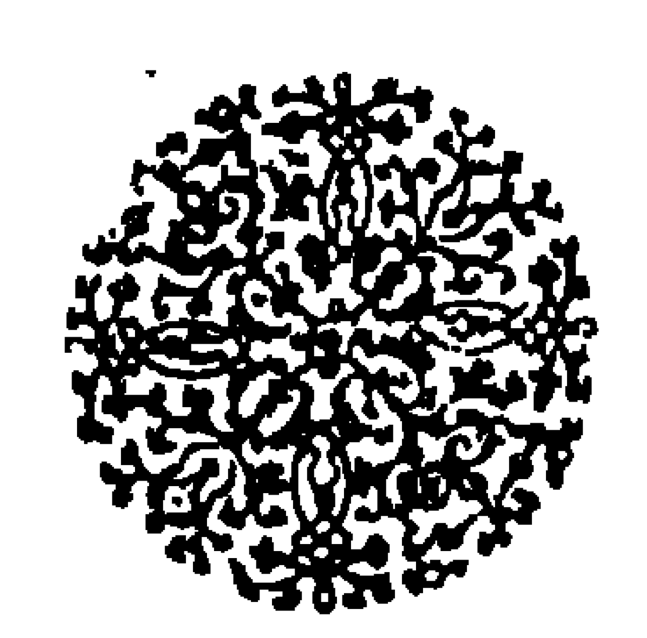
تأليف
جوان جوزيف

ترجمة
مختار السويفي

الناشـــرون
دار الكتب الاسلامية

دار الكتاب المصري
القاهرة

دار الكتاب اللبناني
بيروت



جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر :

دار الكتاب المصري

القاهرة ج.م.ع

٣٣ شارع قصر النيل – ص.ب ١٥٦

ت ٧٤٤٢١٦٨/٧٥٤٣٠١- برقيا : (كتامصر)

TELEX :21581

ATT:134 K.T.M CAIRO

دار الكتاب اللبناني

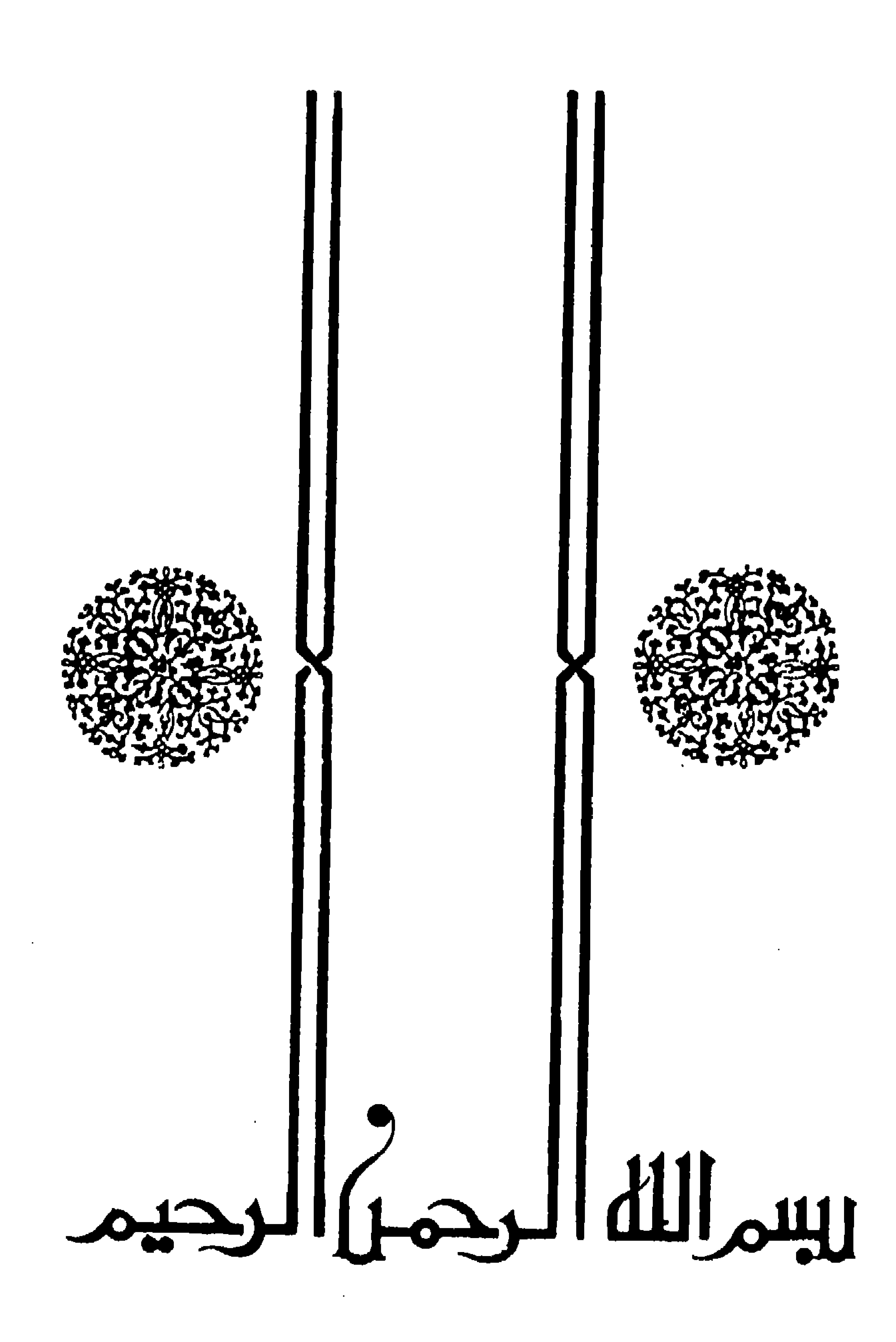
بيروت - لبنان

ص.ب ٣١٧٦ – برقيا : كتالبان

تليفونات : ٢٥١٢٩٤/ ٢٣٧٥٣٧

TELEX :K.T.L 22865 LE

BEIRUT


بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الاولى ١٤٠٤هـ ـــ ١٩٨٤م

مقدمة المترجم :

أليس من المستغرب اننا مصريـــون وافريقيـــون ، ومع ذلك ، فان معلوماتنا عن تاريخ الشعوب الافريقية مازالت قاصرة ، بل ويظن أغلبنا ان افريقيا قارة بلا تاريخ ... !

قد يكون عذرنا فى ذلك ندرة الكتب والمراجع التى تتنـــاول تاريـــخ الشعوب الافريقية ، وخلو مكتباتنا بالتالى من مثل هذه المراجـــع النادرة ، ولكن هذا العذر لا يعفينا من ضرورة المعرفة وأهميتها ، بالنسبة لانتمائنا العضـــوى لتلك القارة ، وبالنسبة أيضـــا للروابط التى تربطنا سياسيا واجتماعيا بجميع الدول والشعوب الافريقية التى تعيش فى عالم اليوم ..

غير ان الظن بأن افريقيا بلا تاريخ ، أو بالاحـــرى الجهل بوقائـــع وأحداث وشخصيات التاريخ الافريقى وعدم معرفة الحضـــارات الراقية التى صنعتها الشعـــوب الافريقية التى تعيش جنوب الصحراء الكبرى ، ليس متفشيا بين المصريين وكل الشعوب العربية الافريقية التى تستوطن الساحل الشمالى فحسب ، وانما هذا الظن شائع أيضا بين جميع الدول والشعوب الافريقية الحديثة ، وان كان ذلك بدرجات متفاوتة ، بل ويمكن القول كذلك بأن هذا الظن منتشر ايضا بين جميع الدول والشعوب فى جميع قارات العالم ... !

ومنذ زمن ليس ببعيد قيض الله بعض العلماء الذين تفرغوا لدراسة تاريخ وحضارة الشعوب الافريقية .. وبدأت بالتالى تتضح معالم مبهرة عن حضارات كثيرة لا تخلو من روعة ورقى ، صنعتها الشعوب السمر التى تعيش فى مناطق غرب وشرق وجنوب القارة ..

وان كانت هذه الدراسات قد اخذت فى الانتشار بين الاوساط العلمية والثقافية فى أوربا وأمريكا ، فأولى بنا نحن المصريين ، ونحن أفريقيون بحكم الانتماء القارى ، أن نعرف نتائج تلك الدراسات الحديثة ..

أولى هذه النتائج ان العرب المسلمين القدماء كانوا اصحاب الفضل الاول فى استجلاء غوامض التاريخ الافريقى للشعوب السوداء التى تعيش جنوب الصحراء الكبرى وفى جميع انحاء القارة .

وابتداء من القرن السابع الميلادى والقرون التالية ، بدأ تاثير العرب يتغلغل فى شمال القارة .. ثم انتقل هذا التاثير الى القبائل والشعوب والممالك الافريقية فى غرب ووسط القارة ، الى ان اتصل بتيار التأثير العربى المستمر على الشعوب والممالك الافريقية على السواحل الشرقية لافريقيا ، المواجهة للسواحل الغربية والجنوبية لشبه الجزيرة العربية .

كتب العديد من مؤرخى العرب وجغرافييهم عن تلك المناطق الشاسعة المترامية الاطراف والتى لم يكتب عنها احد من قبل .. وصفوا البلاد والمدن والناس ، وذكروا إسماء الملوك والاباطرة ، وكيفية حكمهم وسياساتهم وطموحاتهم العسكرية وأحلامهم التوسعية التى كانوا يحققونها فى اغلب الاحيان ..

كذلك فقد ذكر التجار العرب الذين كانوا يتعاملون باستمرار مع القبائل والشعوب الافريقية ، مئات من القصص والحكايات والاساطير التى كانت تتوارث بين ابناء افريقيا السوداء ، جيلا بعد جيل ، ومازالت متوارثة حتى اليوم .. وقد ساهمت هذه المأثورات القبائلية والشعبية فى القاء الضوء على الكثير من الحقائق الساطعة فى التاريخ الافريقى القديم ..

لقد كانت هذه المأثورات المتوارثة هى الوسيلة الوحيدة المتاحة لتلك القبائل والشعوب الافريقية لكى تحكى تاريخ الابناء والاجداد والممالك والامبراطوريات التى انشأوها ، خصوصا وأن الغالبية العظمى من اللغات الافريقية للاسف ، لغات منطوقة وليست لها ابجدية محددة للكتابة والتدوين



تحفة فنية رائعة من نحت فنان
افريقى فى القرن السادس عشر

وقد عكف الكثير من علماء الغرب ، من الانثروبولوجيين المتخصصين فى فروع الانثروبولوجيا المختلفة ، على دراسة وتحليل الاثار والشـــواهد والظواهر المنتشرة فى جميع أرجاء المناطــق الافريقية جنوب الصــحراء الكبرى (٥)

ونتيجة لهذه التحليلات والدراسات العلمية ، توصـــل العلماء الى عشرات ومئات من المعلومات المذهلة عن تلك الحضـــارات القديمة التى ظهرت فى ربوع افريقيا طولا وعرضا ، سواء بالنسبة للصورة التاريخية لافريقيا اثناء فترة العصور الوسطى ، وقبل أن تتمزق القارة بين انيـــاب المستعمرين ، أو بالنسبة للحضارات القديمة التى ظهـــرت وعاشـــت فى أفريقيا قبل الميـــلاد ، وحتى بالنسبة للحضارات الافريقيـــة المغرقة فى القدم والتى عاشت فى المناطق الخصبة بالقارة منذ ملايين السنين .. !

وبطبيعة الحال فقد ظهرت — فى خلال العقود الاخيرة — عشرات من الكتب والمراجع التى تتناول تفاصيل مثيرة عن تاريـــخ الشعوب والممالك والامبراطوريات الافريقية .. وتاريخ أيام المجد وأيام الانكسار والاندحار ، وأيام المآسى والمصائب الكبرى ..

وعرف الناس أن افريقيا لم تكن بلا تاريخ ، كما كان الظن السائد من قبل ، بل كانت هناك حضارات متميزة كان لكل منها طابعها الخاص ، وكانت هناك شعوب متميزة صنعت هذه الحضارات ، وكانت هذه الشعوب منضوية فى لواء العديد من الممالك والامبراطوريات التى ظهرت واختفت فى دوران التاريخ ، وكان هناك أيضا ملوك واباطرة كبار استطاعوا أن يمدوا نفوذهم وهيمنتهم على بطـــاح واسعة ، يتحـــكمون فى الارض والناس ، ويفرضون نظم حكم مركزية مستقرة ، ويوجهـــون العقائـــد والديانات ، وينشئون المسالك والممرات والطرق التجارية الكبرى التى تخترق القارة من الشمال الى الوسط ، ومن الغرب الى الشرق ، ويسيطرون بالتالى على حركة مبادلات ومقايضات تجارية دولية ، وكانوا من الثراء الفاحش بدرجة مذهلة ، ويملكون كنوزا هائلة من الذهب والمجوهرات ..

وعرف الناس أن بعض الممالك والامبراطوريات القديمة ، كانت تمتلك اقوى الجيوش المحاربة فى التاريخ الذى كان يعاصر زمانها .. وأن جيش احدى هذه الامبراطوريات كان تعداده يتجاوز مائتى الف محارب من قادة وفرسان وضباط وجنود ، وكلهم كانوا مسلحين بأقوى الاسلحة التى كانت

مستعملة فى ذلك الزمن .. بل وكان هناك جيش افريقى « أرستقراطى » على نمط الجيوش الاوربية فى العصور الوسطى ، يتدرع فرسانه بالزرد وبالدروع الحديدية ، كما تتدرع الخيــول فيه بدروع قــوية تحميها أثناء تأديتها دور الدبابات فى المعارك .. !

وعرف الناس ايضا تفاصيل تثير الدهشـــة عن مســتوى فن نحت التماثيل من الخشب والعاج والابنوس والنحاس والبرونز ، حيث تبين أن التماثيل التى عثر عليها والتى يرجع تاريخها الى القرون الوسطى ، كانت على درجة فنية راقية ، سواء من ناحية النحت والتشكيل ، أو من ناحية الصب واتقان الصنع ..

وتبين أن هناك حضارات افريقية قديمة ، كانت تبنى بيوتها بالطوب الاحمر وليس بالاعشاب وفروع الاشجار كما كان متصورا من قبل .. بل وظهر أن بعض الحضارات التى عاشت فى مناطق جنوب شرق القارة منذ نحو الف عام ، كانت تبنى البيوت والقصـــور والقلاع والمعابــد من كتل الجرانيت الضخمة .. وظهرت الاثار الدالة على وجــود اكثر من ثلثمائة مدينة افريقية كانت مبنية كلها بالجرانيت .. !

وقد سمحت لى الظروف أن اتردد على لندن عدة مرات ، وكان من السهل دائما الحصول من مكتباتها على الكتب والمراجع التى تتناول الشئون الافريقية ، من سياسية أو اقتصادية أو تاريخية أو عقائدية أو ادبية .. وبهذه الطريقة استطعت تكوين مكتبة جــد صغيرة ومتواضعة ، ولكنها تتضمن أحدث ما صدر من كتب عالمية عن افريقيا ..

وقد لاحظت أن كثيرا من هذه الكتب ، لم تكن مكتوبة فى الاصل باللغة الانجليزية ، بل تمت ترجمتها عن الالمانية أو السويدية أو الفرنسية وغيرها من اللغات الاوربية التى يكتب بها العلماء المتخصصون حسب جنسياتهم المختلفة ، وشد انتباهى أن الاغلبية العظمى من هذه الكتب متاحة بعــدة لغات .. بمعنى ان الكتاب الواحد متاح باللغات الاوربية المختلفة ، مهما كانت فى الاصل جنسية مؤلفه .. الامر الذى اغرانى بضرورة ترجمة بعض هذه الكتب الى اللغة العربية ، لاتاحتها للقارىء العربى الذى يهمه كثيرا أن يزداد قربا الى افريقيا والافريقيين ..

وقد انتهيت بالفعل من ترجمة كتابين :

اولهما كتـــاب : : (VOODOO : AFRICA'S SECRET POWER)

وهو يتناول « عقيدة الفودو » كديانة سائدة فى مناطق غرب افريقيا المطلة على خليج غينيا .. والكتاب من تـــأليف العالم النمساوى « جيرت شيزى » GERT CHESI وقد صدر هذا الكتاب فى الاصل سنة ١٩٨٠ باللغة الالمانية ، وفى سنة ١٩٨١ قام « أرنست كلامبايور » ERNEST KLAMBAUER بترجمته الى الانجليزية ، ومنها نقلته الى العربية ..

اما الكتـــاب الثانى فهـــو : « امبراطوريـــات أفريقيـــا السوداء » BLACK AFRICAN EMPIRES وهو الذى اتشرف بتقديمه للقارىء العربى

وفى خلال شهور قليلة سأنتهى باذن الله من ترجمة كتاب ثالث هو : « أطلس التاريخ الافريقى » THE PENGUIN ATLAS OF AFRICAN HISTORY من تأليف « كولين ما كيفيدى » COLIN MCEVEDY

وارجو من الله تعالى ان يوفقنى الى بذل المزيد من الجهـــد لمواصلة تزويد القارىء العربى بتلك النخبة الممتازة من الكتب المفيدة ، والتى كثر ظهورها وتداولها فى كل من أوربا وأمريكا فى السنوات القليلة الماضية ..

وهناك حكمة افريقيا قديمة تقول : « اذا كنت لا تعلم فتلك مصيبة ، واذا لم ترغب فى ان تعلم فالمصيبة اعظم » .. وخير ما يمكن أن تنطبق عليه هذه الحكمة الطريفة ، هو العلم والمعرفة بأفريقيا ، وخاصة بالنسبة للعرب الافريقيين منهم وغير الافريقيين ..

وكل التوفيق فضل من الله ..

القاهرة : فى أول يناير ١٩٨٤

مختـــار السويفى



الفصل الأول

أفـــريقيـــا

مهد الإنسان الأول



الفصل الاول

منذ عهد قريب ، استقرت النظريات العلمية على أن أفريقيا كانت المهد الاول الذى ظهر فيه الانسان القديم . بل وظهرت نظريات تؤكد أن افريقيا كانت مسرحا للحلقة الاولى فى سلسلة تطور الانسان .

ومن الطبيعى أن تلك القارة كانت حافلة ببنى الانســـان من أفراد وجماعات كانت تعيش فيها منذ عصور ما قبل التاريخ ، ومازالت تعيش فيها حتى الآن .

وفى العصور التاريخية المختلفة ، ظهرت فى ربوع تلك القارة عشرات من المجتمعات الانسانية التى كانت لها حضارات وثقافات مختلفة ، ولكنها حضارات افريقية الاصـــل والجذور ، ويمكن دراستها دراســـة تحليلية لمقارنتها بالحضارات الاخرى القديمة التى كانت تزاملها فى الزمان وان اختلفت معها فى المكان . أى مقارنة هذه الحضـــارات الافريقية القديمة بغيرها من الحضارات القديمة الاخرى التى ظهـــرت فى زمانها فى مختلف قارات العالم الاخرى .

وحتي سنة ١٩٢٤ ، كانت النظريات العلمية مستقرة على أن قارة آسيا كانت المهد الاول للانسان القديم ، الا ان هذه النظريات قد انقلبت راسا على عقب نتيجة لبحـوث ودراســات العالم الانثروبولوجى (١) البروفيسور « رايموند أ . دارت » الذى أعلن اكتشافا مثيرا فى ذلك العام .

فى أحد المحاجر المخصصة لاستخراج الحجر الجيرى ، الواقعة على حـافة صـحراء « كلا هارى KALAHARI فى منطقة « بتشـوانالاند BECHUANALAND بجنـوب أفريقيـا .. وكـا هـذا العالم الانثروبولوجى يقوم بأبحاثه وفحوصه للصخور والاحجار ، ودراسة ما يعثر عليه من حفريات .

---

(١) الانثروبولوجى : هى علم أو علوم الانسان . تتناول دراسة كل نواحى « النوع الانسانى » وكل الظواهر المتعلقة بالانسان . وهى تعتمد فى ذلك على النتائـج التى توصلت اليهـا العـلوم والدراسات الاخرى .
وتنقسم علوم الانثروبولوجيا الى عدة فروع :

* الانثروبولوجيا الطبيعية : تتناول بالدراسة النمو الجسمى للانسان من ناحية تطوره . وتشمل « علم الحفريات البشرية » أو علـم الانسان القديم ، و « علم الاجناس البشرية » من ناحية الخصائص الجسمية .

* الانثروبولوجيا الاجتمـاعية : تتناول دراسـة النظم الاجتماعية المختلفة دراسة مقارنة ، وتهتم اساسا بنظم المجتمعات البدائية .
الانثروبولوجيا الثقافية : تتنـاول دراسـة عادات الشعـوب وتقاليدها ، دراسة تاريخية . ويدخل فى نطاقها عدة علوم أهمها « الاركيولوجى » : وهو علم يتناول بالدراسة ثقافات ما قبـل التاريخ والثقافات البائدة . و « الاثنولوجى » : وهو علم يتناول الثقـافات الانسـانية الحـالية والاسـتعانة عليها بدراسـة انثروبولوجيا الجماعات المتأخرة . كما يهتم بدراسة الاجنـاس البشرية الحالية والمندثرة ، مع العناية بالدراسة التحليلية المقارنة للشعوب البدائية . وكذا دراسة الظواهـر الاجتماعية فى المجتمع البدائى ، على اساس المنهج التاريخى ، بقصد التعرف على نشأة الظاهرة أو النظام مع تتبع المراحل المختلفة التى مر بها .



الجمجمة المتحجرة الأصلية « لانسان الزنج »

ولحسن الحظ عثر على جمجمة متحجرة « لحيوان » مات حين كان عمره ما بين ٤ — ٥ سنوات . وقد تحجرت هذه الجمجمة بفعل نفس التغييرات والعمليات الكيماوية التى كونت الاحجار الجيرية نفسها .

وبمزيد من الفحوص والدراسات التى اجريت على هذه الجمجمة المتحجرة للحيوان الصغير ، تبين أنها احدى حلقات التطور المفقودة بين الحيوان العالى وبين الانسان الاول .. طبقا لنظرية داروين فى التطور أو النشوء والارتقاء .

كان « المخ » كبيرا .. وكانت الملامح تقارب ملامح الانسان الاول .. وكانت المفاجأة فى هذا الاكتشاف أن الحيوان الطفل صاحب هذه الجمجمة كان يعيش منذ نحو مليون سنة على وجه التقريب .. !

وهكذا اعلن العالم الانثروبولوجى « رايموند دارت » نظريته التى تقول انه اكتشف الحلقة المفقودة فى نظرية داروين فى التطور .. وهو بهذا يؤكد صحة النظرية التى تقول أن الانسان الاول « تطور » عن مخلوقات لم تكن بشرية فى الاصل ، وتسبق ظهور الانسان الاول بمراحل .

وقد أطلق « دارت » على هذه الحلقة التى اكتشفها اسما علميا هو AUSTRALOPITHECUS AFRICANUS أو SOUTH AFRICAN APE أى « الانسان القرد الجنوب افريقى » .

غير ان هذه النظرية قد انقلبت راسا على عقب سنة ١٩٥٩ .. بل وتأكدت الشكوك فى صحة نظرية داروين برمتها .

● ● ●

فى تانزانيا .. كان هناك اثنان من علماء الانثروبولوجى يجريان ابحاثهما ودراساتهما ، هما : العالم « الدكتور لويس ليكى » Dr LOUIS LEAKEY المولود فى كينيا ، والذى وهب حياته كلها للبحوث الانثروبولوجية فى افريقيا ، وزوجته العالمة الانثروبولوجية « مارى ليكى MARY LEAKEY

وفى ١٧ يوليو ١٩٥٩ ، اكتشف العالمان هذا الكشف الخطير الذى جعل نظرية داروين محل شكوك واعادة نظر .

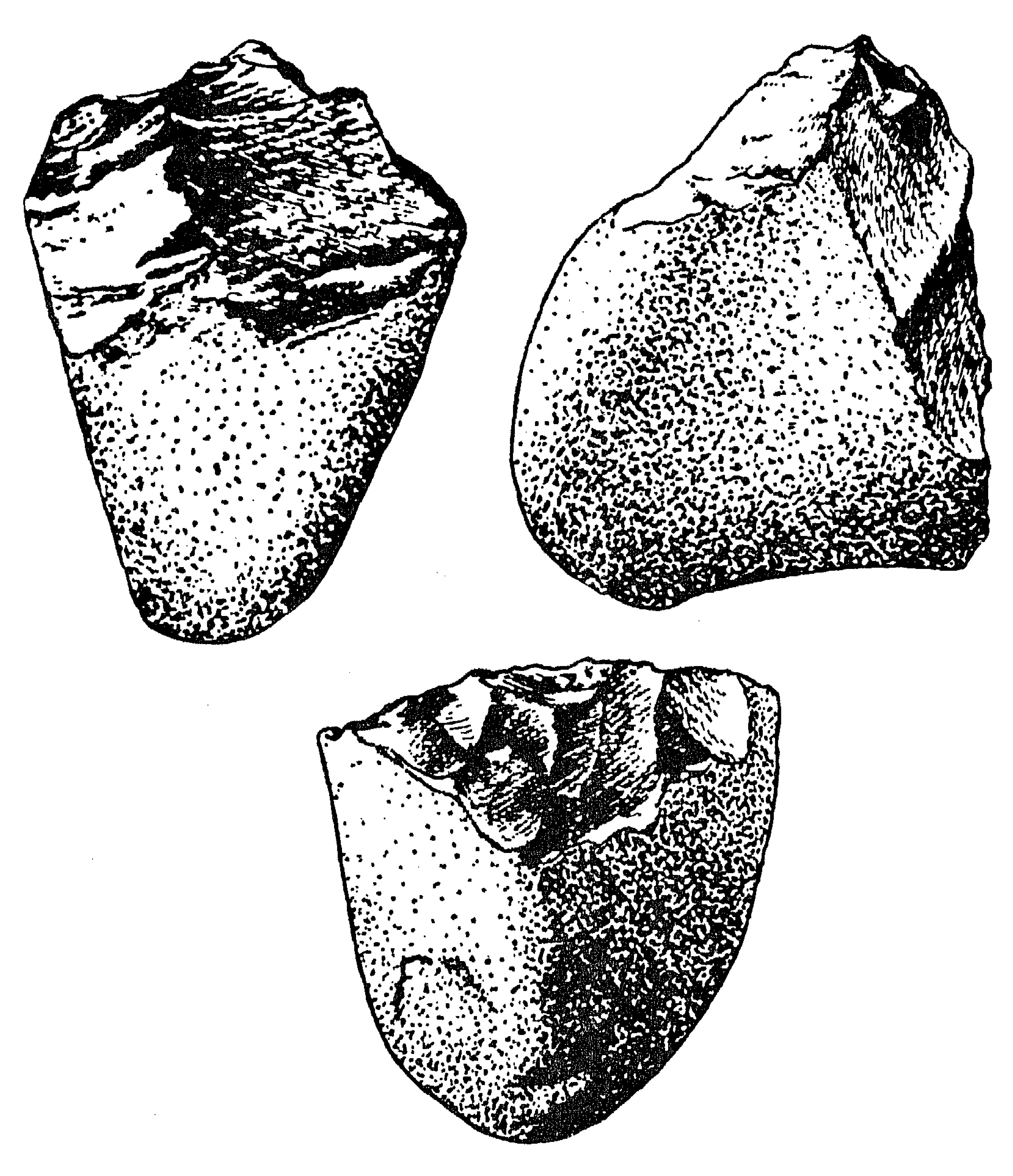
عثر العالمان فى احدى الحفريات على جمجمة متحجرة لمخلوق شديد الشبه بالانسان .. وبالفحص العلمى تبين أن هذا الشبيه بالانسان كان يعيش منذ مليون وسبعمائة وخمسين ألف سنة « ١٫٧٥٠٫٠٠٠ سنة » . وأطلق العالمان عليه اسما علميا هو Zinj anthropus أو « انسان الزنج »

وكانت النتيجة العلمية التى وصل اليها العالمان الزوجان ، هى أن هذا الانسان هو نفسه الانسان الاول الذى تطور منه الانسان الحديث الذى يعيش فى عالم اليوم .. وكان دليلهما على ذلك هو عثورهما فى الاماكن المجاورة ، على أدوات حجرية كانت مشذبة ومسنونة بحيث يمكن استخدامها فى « **القطع** » ..

وفى سنة ١٩٦١ عثر دكتور ليكى وزوجته مارى على أدوات أخرى هى عبارة عن فئوس يدوية مصنوعة بطريقة تجعلها صالحة « للدق والعزق » .. كما عثر أيضا على المزيد من الجماجم والعظام لافراد كانوا يعيشون فى تلك المنطقة منذ ما يقرب من نصف مليون سنة ، وقد أطلق العالمان اسما علميا على هذا الانسان الجديد وهو « الانسان الماهر » Homo Habilis

وبعد موت الدكتور لويس ليكى ، واصل ابنه « ريتشارد ليكى » أبحاث ابيه ، وكان الابن بدوره عالما متخصصا فى الانثروبولوجى .. نفس العلم الذى تخصص فيه أبواه ..ولحسن الحظ فقد عثر ريتشارد على اهم دليل قاطع يؤكد النظرية التى قال بها أبوه ، ويؤكد الشكوك فى صحة نظرية التطور لداروين .

فى احدى مناطق كينيا .. وبالتحديد فى منطقة الشواطىء الرملية للجانب الشرقى من بحيرة « رودلف » عثر ريتشارد ليكى على هيكل عظمى متحجر لمخلوق شبيه بالانسان ثبت بالفحص العلمى انه كان يعيش فى تلك المنطقة منذ نحو مليونين وستمائة الف من السنين « ٢٫٦٠٠٫٠٠٠ سنة ».. كما ثبت بالفحص العلمى والتشريحى لعظام الفخذ ، أن هذا الشبيه بالانسان كان يمشى واقفا على قدميه ، مثله فى ذلك مثل « الانسان الحديث Homo Sapiens » ولذلك فقد اطلق عليه اسما علميا هو Homo Erectus أو « الانسان الواقف على قدميه » .



أدوات حجرية كان يستعملها « الانســان الواقف على قدميــه »

وهكذا اثبت هذا العالم أن « الانسان الحديث » قد ظهر فى الاصل فى صورة انسان واقف على قدميه ، يمشى أو يجرى بنفس الطريقة التى يمشى أو يجرى بها الانسان الحديث .

ومعنى ذلك أن اصل الانسان ليس « قردا » أو من القردة العليا كما تقول نظرية التطور التى كانت تنقصها حلقة أو حلقات مفقودة ، هى الصلة بين هذه القردة العليا والانسان الحديث .

وعند اجراء المزيد من الفحوص التشريحية للجمجمة والهيكل العظمى للانسان الواقف على قدميه الذى عثر عليه فى كينيا ، اثبت العلماء الذين قاموا بالفحص التشريحى والفحص الالكترونى أن عظام الفخذ لهذا الانسان الذى كان يعيش فى افريقيا منذ ٢٫٦٠٠٫٠٠٠ سنة كانت مماثلة للصفات التركيبية لفخذ الانسان الحديث .

كذلك فقد اثبتت الفحوص التى اجريت لعظام اليدين ، أن هذا « الانسان الواقف على قدميه » كان فى امكانه استخدام ذراعيه ويديه وكفيه واصابعه بنفس الطريقة المعروفة للانسان الحديث ، وان كانت المهارة اليدوية لانسان اليوم قد فاقت كل حد بطبيعة الحال .

وبهذا انهدمت نظرية « الانسان القرد الجنوب افريقى » التى قال بها من قبل العالم الانثروبولوجى « رايموند دارت » سنة ١٩٢٤ ، والتى كان يدعى فيها أنه عثر على الحلقة المفقودة فى نظرية التطور لداروين .. فهذا « الانسان الواقف على قدميه » الذى كان يعيش فى افريقيا من ملايين السنين ، كان يمشى ويجرى على الارض ويستعمل يديه واصابعه تماما كالانسان العادى الحديث ، ولم يكن يتشعلق مثل القرود على اغصان الشجر .. !

وعلى أية حال ، فان الدراسات والاكتشافات فى علم الانسان « الانثروبولوجى » مازالت مستمرة .. وربما تؤدى الاكتشافات الجديدة الى اعادة كتابة هذا العلم مرة بعد اخرى .. ومع ذلك فان الرأى العلمى الغالب الان هو ان اجداد الجنس البشرى القدماء ، كانوا يعيشون فى الوادى الخصيب للاخدود الافريقى العظيم فى مناطق شرق افريقيا .. وبالرغم من ذلك فلا شىء يمكن القطع به على وجه اليقين ..ومازال هناك الكثير من الاسرار والاسئلة الخاصة بنشأة وظهور الانسان على الارض .. ومازالت

الاسرار غامضة على نحو ما ، ومازالت الاجابة عن الكثير من الاسئلة محل فحص وتحقيق من العلماء ومعامل التحليل الالكترونى الحديثة ..

• • •

ومن هذه البقعة النائية فى شرق افريقيا .. ومنذ ذلك الزمن السحيق فى القدم .. خرجت تجمعات « الانسان الواقف على قدميه » .. لتتجول فى مختلف انحاء القارة ، شرقها وغربها وجنوبها وشمالها .. واخذت هذه الجماعات تكيف حياتها طبقا للظروف السائدة فى بيئات الاستيطان الجديدة ، حيث يتوفر الطعام والمأوى .. كذلك فقد أخذ لون بشرته يتكيف طبقا للتغيرات المناخية التى طرأت على القارة عبر ملايين السنين ..

ولهذا نجد ان الافريقيين الذين يعيشون الان فى مناطق شمال أفريقيا وعلى شواطىء البحر الابيض المتوسط يتميزون ببشرة لونها أفتح بكثير من لون بشرة الافريقيين الزنوج الاصلاء الذين يعيشون فى مناطق غرب القارة ووسطها ، ويعتبر لون بشرتهم ادكن ألوان البشرات فى افريقيا كلها ..

(بالاضافة الى الظروف المناخية التى ادت الى انتشار اللون القمحى الفاتح بين شعوب شمال أفريقيا ، هنا ك ظروف انثروبولوجية أخرى تتمثل فى الهجرات المتعاقبة التى كانت تفد الى شمال افريقيا من آسيا ومناطق القوقاز ..) .

كذلك فالملاحظ أن قبائل « الاقزام » Pygmies الذين يعيشون فى مناطق الغابات الاستوائية المطرة بغرب ووسط القارة ، حيث تتوفر الظلال والحماية من التعرض للهيب الشمس ، يتميزون بلون أفتح من لون أبناء عمومتهم الذين يعيشون فى المناطق المكشوفة المتعرضة لحرارة الشمس فى المراعى ، وأطراف الصحارى واقاليم السافانا .

وقد اثبتت النتائج العلمية الحديثة ان قبائل وشعوب « البوشمن » الذين يعيشون فى مناطق صحراء كلاهارى ، كانوا أيضا من السكان الاوائل الذين استوطنوا تلك المناطق منذ تاريخ غارق فى القدم .. وذلك رغم أن العلم لم يتوصل حتى الان الى نتائج مؤكدة عن أصل البوشمن والمكان الذى كان يعيش فيه أجدادهم وأصولهم الاوائل .

وفى مناطق الشواطىء الشرقية من أفريقيا ، يعيش « الحاميون » Hamites الذين ورد ذكرهم فى التوراة باعتبارهم أولاد وابناء حام بن النبى نوح .. ولون بشرة هؤلاء الحاميين يميل الى الصفرة الضاربة

الى اللون البنى ، كما أن ملامحهم تقترب الى ملامح الشعوب الافريقية التى تعيش فى مناطق البحر الابيض المتوسط ، أكثر من اقترابها من ملامح الشعوب الافريقية التى تعيش فى مناطق غرب ووسط وجنوب القارة .

والى جانب الظروف الطبيعية والمناخية والبيئية التى أدت الى اختلاف لون بشرة وملامح الحاميين ، هناك رأى يقول ان السبب فى ذلك يرجع ايضا الى الهجرات المتعاقبة الوافدة من قارة آسيا ، والتى استقرت فى شواطىء شرق افريقيا وامتزجت بشعوبها .

ومن هذا يتبين لنا مدى التنوع والاختلاف بين جميع الشعوب والقبائل التى تعيش فى افريقيا . هذا التنوع الناتج اساسا بسبب تنوع — بل وتناقض — الظروف الطبيعية والمناخية والبيئية والبشرية التى سادت وتسود تلك القارة منذ ملايين السنين ..



الفصل الثانى

أفريقيا

قارة المتناقضات



الفصل الثانى

تبلغ مساحة الاراضى الصحراوية فى افريقيا نحو سبعة ملايين وربع مليون « ٧٫٢٥٠٫٠٠٠ » كيلو متر مربع .. !

ولكى ندرك مدى اتساع وضخامة هذه المساحة ، فلنتصور اننا لو وضعنا رقعة المساحة التى تشغلها الولايات المتحدة الامريكية برمتها والتى تبلغ نحو ٥٫٦٠٠٫٠٠٠ كيلو متر مربع داخل هذه المنطقة الصحراوية الافريقية،فان الولايات المتحدة تختفى بكاملها داخل هذه المنطقة الصحراوية الهائلة ، بل وسوف تحيط بها الرمال أيضا من كل جانب ، بمساحة تصل الى نحو ١٫٦٠٠٫٠٠٠ كيلو متر مربع .

ولكن هناك حقيقة علمية تؤكدها البحوث والدراسات الجغرافية والمناخية لكوكب الارض .. هذه الحقيقة تقول أن المناطق الصحراوية الافريقية حديثة التكوين .. ولم تكن افريقيا فيما مضى تضم كل هذه الصحارى ..

وقد اثبتت الحفريات والبحوث الجيولوجية ، انه منذ نحو ما لا يزيد عن خمسة آلاف سنة ، لم تكن الصحراء الكبرى بمثل هذا الاتساع الهائل القائم الان .. بل كانت منطقة صحراوية صغيرة محاطة بأراض خصبة غنية تنمو فيها ملايين الاشجار وتغطيها الاعشاب الخضراء ، ويعيش على خيراتها مئات من القبائل والشعوب التى كانت تتمتع باقتصاديات الوفرة ،

وتعتمد فى حياتها على ما توفره الطبيعة من انتاج هائل من الثمار والبذور والجذور ، ومما يؤكل أو ينتفع به من الحيوان والدواب ، كما كانت المجارى والبحيرات المائية حافلة بوفرة هائلة من مختلف أنواع الاسماك .. !

ماذا حــدث اذن .. ؟!

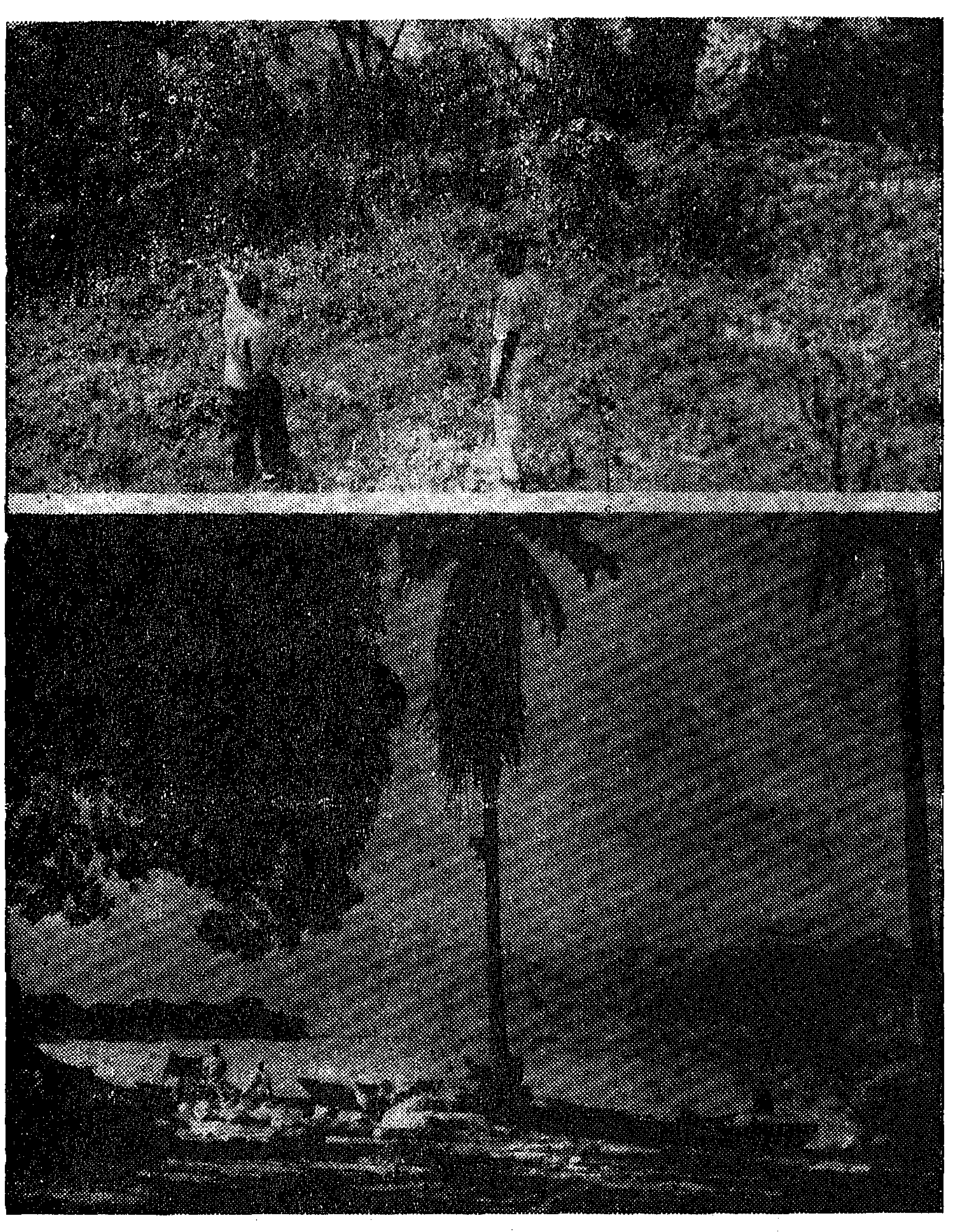
لقد طرأت تغيرات مناخيــة هائلة شملت الكرة الارضــية برمتها فى العشرة الاف سنة الاخيرة .. ولقد تأثرت افريقيا بهذه التغيرات فى المناخ مثلما تأثرت بها قارات العالم الاخرى .

انقشعت السحب ولم تعد تسقط الامطار ، فانقطع الماء عن مجاريه، وجفــت المستنقعات والبحيرات التى كانت منتشرة فى كل مكان ، فماتت الاسماك والحيوانات المائية التى لا تتحرك الا فى الماء ودفنت فى طبقــات الطين المتراكمة .. أما الحيوانات الاخرى التى تعتمد على أرجلها فى الجرى، فهاجرت فى شكل آلاف وملايين القطعان الى المناطق الاخرى التى تتوفر فيها سبــل الحيــاة .

كذلك فقد حدثت هجــرات بشرية مماثلة .. فقد رحلت القبائــل والشعوب التى كانت تعيش فى تلك المناطق الى مناطق أخرى داخل القارة أو على شواطئها ، وذلك بعد ان تحولت أراضيهم فيما بعد الى صــحراء قاحلة ، تمتد من شواطىء المحيط الاطلنطى فى غرب القارة ، متجهة نحــو الشرق حتى وصلت الى شواطىء البحر الاحمر ، وذلك بعرض يصل الى نحو الفين من الكيلو مترات ... !

وبالرغم من أن هذا التغير المناخى قد أدى الى ظهور هذا الفاصل الزملى العريض بين الشعوب الافريقية التى تعيش شمال الصــحراء ، والشعوب الافريقية التى تعيش جنوب الصحراء ، الا ان الصلات لم تنقطع أبدا بين الافريقيين ككل طوال التاريخ . فقد كانت هناك اتصالات مستمرة بين الشمال والجنوب ..

ويمكن القــول بصفة مؤكــدة انه فى الوقت الذى ظهرت فيه أعلى مستويات الحضارة الانسانية فى العالم القديم على ضفاف النيل ودلتاه فى مصر القديمة ، كانت هناك حضارات افريقية أخرى فى جنوب الصحراء الكبرى ، معاصرة للحضارة المصرية .. ولكننا للاســف لا نعرف الا أقل القليل من تاريخ هذه الحضارات الافريقية السوداء ..



العليا : فى غابات جنـوب الســودان
السفلى : ضـفاف بحـيرة نياســا ، على حـدود موزمبيق

ومن النتائج الاخرى التى ادت اليها التغييرات المناخية فى افريقيا ، انها أثرت ولا شك فى تنوع الحضارات للقبائل والشعوب التى تعيش فى مناطق مناخية مختلفة .. ففى مناطق السافانا والاعشاب المدارية ، تحترف الشعوب والقبائل مهنة الرعى كأساس تقيم عليه صرح حياتها ، فأصبحوا بالتالى رعاة لا يستقرون فى مكان واحد ، بل يتنقلون دواما الى حيث يوجد العشب وتتوفر المياه ..

أما القبائل والشعوب الافريقيــة التى تعيش فى مناطق الشواطىء الشرقية للقارة ، فقد تأثرت كثيرا بجيرانهم من العرب والاسيويين ، ولم تتقطع الصلات التجارية والثقافية بين هؤلاء وأولئك على مــدى التاريخ القديم والتاريخ الحديث .

أما القبائل والشعوب الاخرى التى كانت تعيش داخل قلب القارة، فقد ادت الظروف الى انفصالها فى جماعات بشرية مستقلة قليلة الاتصــال بالاخرين من الجماعات الاخرى .

ومنذ ملايين السنين ، حدث تغير جيولوجى هائل فى شرق أفريقيا .. فقد انشقت الارض عن « الاخدود الافريقى العظيم » الذى يمتد منحنيا من من شمال كينيا متجها الى الجنوب ، حيث يخترق تانزانيا ثم موزمبيق ..

ويصل عرض هذا الشق أو الصدع الهائل نحو «٦٥» كيلو مترا فى بعض المناطق ، ويصل عمقه نحو «٧٠٠» متر . ويعتبر هذا الاخدود من أخصب الاراضى الافريقية ، حيث تتوفر فيه كل الظروف الملائمة للزراعة والاستنبات ، لذلك فقد عاش فيه الانسان الاول منذ ملايين السنين ، كما اثبتت الحفريات الحديثة .

وحتى نهر النيل العظيم ، الذى ينبع من قلب القارة ويمتد حتى يصل الى البحر الابيض المتوسط ، كان من الممكن أن يؤدى دوره الطبيعى كطريق للاتصال بين من يعيشون فى شمال الصحراء ومن يعيشون فى جنوبها ، الا أن هذا الطريق كان مسدودا فى الجنوب ، حيث تعترض مجراه مساحة كثيفة هائلة من المستنقعات النباتية المعروفة باسم « منطقة السدود » ..

• • •

أما « الزنوج » الذين يعيشون فى مناطق الشواطىء الغربية للقارة فقد كانوا على اتصال مستمر بالعرب .. لدرجة انهم قد تأثروا بالحضارة العربية ، واعتنـــق اغلبهم الدين الاسلامى ، واصطبغت حضارتهم بالتالى بصبغة اسلامية .

ولكن الزنوج الذين كانوا يعيشون فى مناطق غرب القارة ، لم يكونوا مهيئين للحياة داخل منطقة الغابات الاستوائية الكثيرة الامطار والكثيفـــة النباتات والاعشاب والاشجار ، فتركوا قلب هذه الغابات لقبائل أخرى كانت لها قدرة على التكيف بظروف البيئة ، وهم قبائل «الاقزام» الذين يعيشون حياة لها طابعها الخاص ، ومختلفة تماما عن طريقة حياة الاخرين .

ومما زاد فى عزلة القبائل والشعوب الافريقية التى تعيش داخـــل الغابات الاستوائية المطرة ، أن تلك المناطق تعتبر بيئة صالحة جدا لتوالد الحشرات المتوحشة التى تقضى فى سهولة على حياة الانسان والحيوان ، خصوصا بعوض الملاريا والحمى الصفراء وذباب تسى تسى الذى يبيـــد الحياة بلدغة واحدة .. وفى مثل هذه الظروف الصعبة المعادية للحياة ، فان معدل النمو السكانى بطىء للغايـــة ، مع ارتفاع معدل الوفيات بطريقـــة رهيبة .. ولهذا يمكن القول بأن هذه القبائل ظلت تعيش حياتها الخاصـــة منعزلة عن الاخرين ، كما انعزل الاخرون عنهم .

والملاحظ بصفة عامة أن جميع الحضارات الانسانية التى ظهرت فى افريقيا السوداء ، كانت من صنع القبائل والشعوب التى تعيش فى مناطق الشواطىء الشرقية والغربية ، والقبائل والشعوب الاخرى التى تعيش فى المناطق العشبية الصالحة للرعى والمناطق الخصبة الاخرى الصالحة للاستزراع والاستنبات ..

هاهى اذن الارض الافريقيـــة التى عاش ويعيش عليها الانســـان الافريقى .. فى قارة حافلة بالمتناقضات : غابات اســـتوائية كثيفة عالية الرطوبة .. وثلوج كليمانجارو .. ورمال حمصتها الشمس الحـــارقة فى الصحراء الكبرى وصحراء كلاهارى .. وخضرة يانعة خصبة فى أراضى الاخدود الافريقي العظيم ..

وعلى هذه الارض عاشت على مدى التاريخ ، وما قبل التاريخشعوب مختلفة تتكلـــم مئـــات اللغات المتباينـــة ، وصنعت حضـــارات وممـــالك وامبراطوريات ، مازال التاريخ يكشف عنها ، ورقة ورقة ..

الفصل الثالث

مملكة كوش



موقع مملكة كوش

الفصل الثالث

ومثلما كانت أفريقيا أول مهـــد ظهر فيه الأنســـان ، فقد كانت على الارجح أول مهد ظهرت فيه حضارات الانسان .. ويمكن القول بصـــفة قاطعة ان الحضارة المصرية التى ظهرت فى شمال شرق أفريقيا ، كانت أرقى وأعلى واعظم حضارة صنعها الانسان القديم .

وقد كان من المتوقع لمثل هذه الحضارة الراقية المتقدمة ، أن تؤثر فى حضـــارات افريقيـــا الســـوداء ، وكانت اقـــرب المناطـــق الافريقية منـــالا للمصريين القدماء ، هى بلاد النـــوبة أو « أرض كوش » LAND OF KUSH كما كان يسميها قدماء المصريين .

وقد ذكرت « أرض كوش » فى « سفر التكوين » عند ذكر قصة أولاد نوح الثلاثة الذين تفرقوا ليعمروا الارض بالنسل الانسانى فى جميع أرجاء الدنيا المختلفة ، حيث كان نسل كل ابن من ابناء نوح يمثل نوعا متميزا من جنس الانســـان .

ولكن من الناحية التاريخية لا يوجـــد ذكر لارض كوش قبل الالف الثالثة قبل ميلاد المسيح ، حيث سجل المصريون القدماء وصفا للجماعات البشرية التى كانت تسكن مناطق النيل الاوسط فيما وراء الحدود الجنوبية لمصر العليا ..

ويتلخص هذا الوصف فى أن هذه الجماعات كانت عبارة عن قبائل متفرقة تعيش على صيد الحيوان والاسماك ، ولا تكاد تهتم بالزراعة الا فى القليل النادر ..

ومنذ بداية التاريخ المصرى وعصر الاسرات الفرعونية التى حكمت مصر ابتداء من سنة (٣٢٠٠ ق ٠ م) وبلاد كوش كانت تحت هيمنـــة وسيطرة المصريين ، باعتبارها الامتداد الاستراتيجى للعمق المصرى مـــن ناحية الجنوب .. حيث أقام الفراعنة الاوائل العديد من القلاع الحربيـــة والمراكز التجارية والمعابد الدينية فى طول بلاد كوش وعرضها .

وفى سنة ١٥٧٠ ق ٠ م ضم المصريون القدماء بلاد كوش نهائيـــا . واصبحت جزءا لا يتجـــزأ من الاراضى المصرية ، وبالتالى فقد أزدهرت الحضارة فى تلك البلاد واخذت بيد القبائل البدائية لتعلمها حرفا اخرى . كالزراعة والتعدين ، ولتفرض عليها التدين بالديانات المصرية وعبادة الالهة المصريين . وبالتالى اعتناقهم للثقافة المصرية ولغة وعادات المصريين .

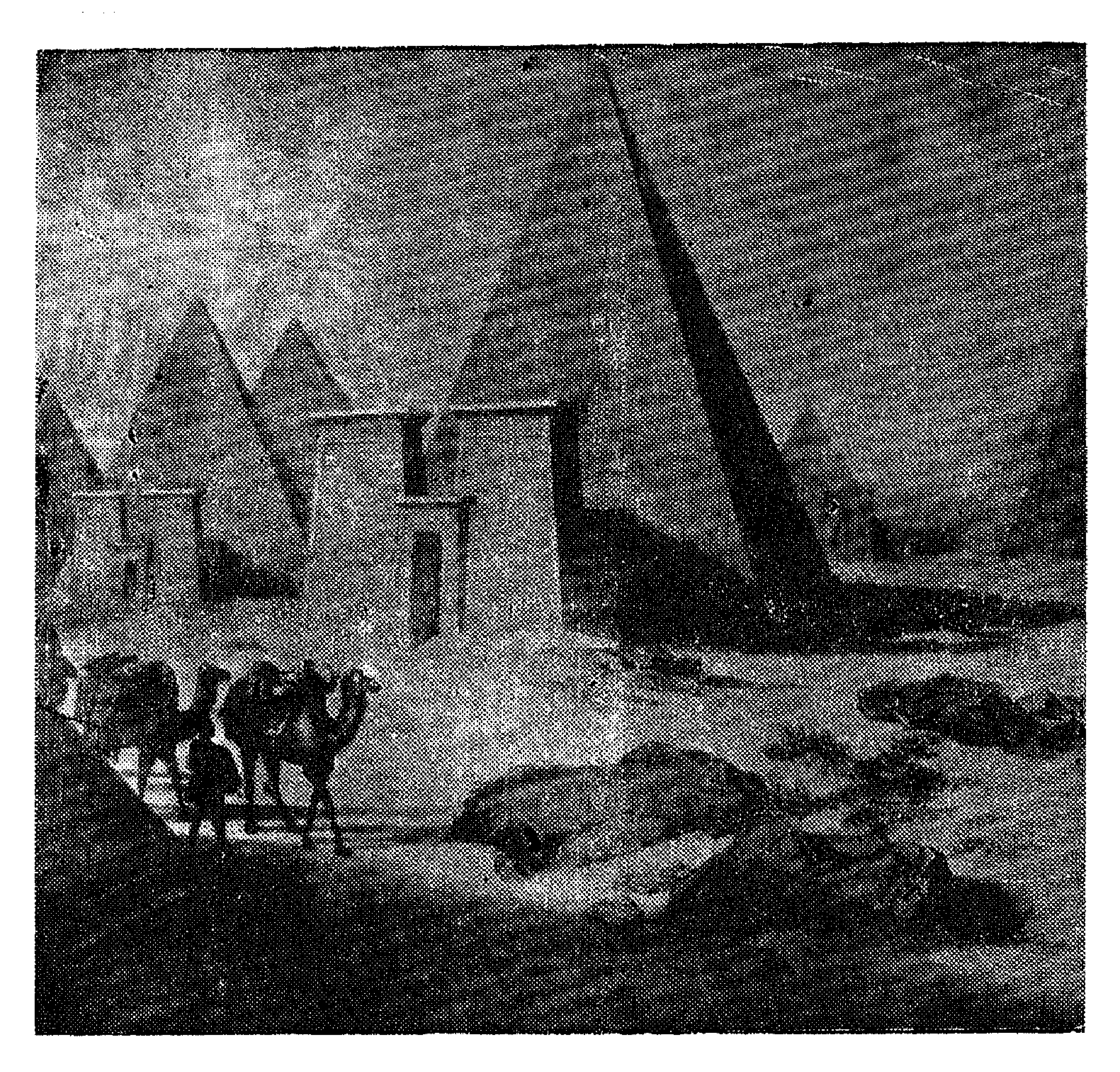
ومن أرض كوش كان المصريون يستخرجون الذهب من المناجم التى بحثوا عنها واستغلوها احسن استغلال ، كما كانوا يستخرجون المعـــادن الاخرى غير الذهب ، وبالتالى أزدهرت صناعة التعدين فى بـــلاد كوش ، وانتشرت افران الصهر وتجهيز المعادن لجعلها صالحة للتصنيع

كذلك فقد كانت تلك البلاد مصدرا إساسيا للعاج والابنوس الـــذى ساهم فى رفع الثقافة الفنية والتذوق الفنى حين كان يتحول الى منتجات واشكال فنية يتزين بها الانســان ويختال ..

اما أهالى كوش فقد اندمجوا فى تلك الحياة التى جاءتهم من الشمال، وتعاطوا حرفا جديدة لم يالفوها من قبل ، حيث اشتغل الكثيرون — سواء ببلادهم أو فى مصر — كعمال وفلاحين .. بل وانخرطوا أيضـــا فى سلك الجندية النظامية للجيش المصرى الذى كان يعتبر أقوى الجيوش العسكرية فى العالم القديم وأكثرها تنظيما ..

ولكن الى جانب هذا الانـــدماج الكامل فى الارض المصرية والثقافة المصرية ، فقد احتفظ الكوشـــيون كذلك بطابعهـــم الخاص ، وشخصيتهم القومية المتميزة ، فتجمعوا فى وحدة مستقلة وانشأوا لانفسهم مملكة أخذت تقوى على مدى الزمن .

وأول ملك قوى تولى الحكم فى بلاد كوش ، هو « الملك كاشتا » وكان ذلك فى سنة ٧٥٠ ق ٠ م .. وقد قويت شوكة الكوشيين فى عهده ، وكون منهم جيشا نظاميا اتجه به نحو الشمال الى مصر .. وكانت الحضـــارة



أهـرامات مدينـــة « مـروى » القديـمة ٠

المصرية فى ذلك الوقت قد كبرت وشـــاخت كما أخذ التفكك يدب فى اركان الدولة .

وفى سنة ٧٢٥ ق . م استطاع « الملك بعنخى » ابن الملك كاشتا،انيدخل مصر غازيا ، وان يصبح أول فرعون نوبى يجلس على عرش مصر ، ويبدأ فى عهده تاريخ الاسرة الخامسة والعشرين ، ضمن سلسلة الاسرات الملكية الثلاثين التى حكمت الديار المصرية .

• • •

ولكى ندرك مدى العظمة التى بلغتها مملكة كوش فى ذلك الزمن ، فلنتصور ان ملوكها كانوا يحكمون أرضا شاسعة ، تمتد من شواطىء البحر الابيض المتوسط فى الشمال ، حتى الحدود الشمالية والغربية لدولة اثيوبيا الحديثة .. ويجرى النيل فى تلك الاراضى بما يزيد طوله عن « ٢٢٥٠ » كيلو مترا ..

وكانوا يحكمون شعبا استوعب الدروس الحضارية وتعـددت فيه الصناعات والحرف ، حيث ازدهرت صناعة الاوانى الخزفية والسيراميك على نطاق واسع ، وصارت تصدر بكميات كبيرة الى مناطق اخرى خارج أفريقيا ، لما اشتهرت به من رقة فى الذوق ودقة فى الصناعة .

كذلك ازدهرت فى عهدهم اعمال الصياغة للذهب والاحجار الكريمة . واشغال التحف الراقية المصنوعة من الابنوس والعاج والتى كانت تصدر بدورها الى دول اخرى خارج أفريقيا ، حتى وصلت الى جنوب غرب آسيا ، حيث كانت تزين بها قصور أباطـرة الفرس . بل وتـدل بعض الشواهد التاريخية على وجود علاقات تجارية بين مملكة كوش وملوك اسرة « هان » Han التى كانت تحكم بلاد الصين أيامهم .

وفى سنة ٥٣٠ ق . م نقل الكوشيون عاصمتهم من مدينة « نباتا » Napata الى عاصـمة جـديدة هى مدينـة « مـروى » Meroe التى تبعد حوالى مائتى كيلو متر شمال مدينة « الخرطوم » عاصمة السودان

وقد بلغت هذه العاصمة الافريقية الجديدة شأوا عظيما فى الحضارة والرقى مازالت آثاره باقية حتى اليوم ، وتعتبر خير شاهد على ما كـان لتلك المدينة من مكانة حضارية فى قلب العالم القديم ..

وقد بنيت « مروى » فى الاصل على نفس نمط وتخطيط المدن المصرية المعروفة فى شمال وادى النيل .. وانتشرت فيها القصور المشيدة على نفس نمط القصور الفرعونية ، كما انتشرت المعابد التى تأخذ شكلا فرعونيا خالصا ، بل وكانت الالهة التى تعبد هى نفسها آلهة المصريين ، وعلى رأسهم « آمون رع » الى جانب الالهة المحليين ..

بل وحين كان يموت « فرعون كوش » كان يدفن فى مقابر ضخمة مشيدة على طريقة الاهرام المصرية ، وان لم تبلغ ضخامتها ، ومازال الكثير من آثار تلك الاهرام الكوشية باقيا حتى اليوم .

وكان ملوك كوش يحكمون استنادا لفكرة « الحق الالهى » اذ كانوا جميعا يعبدون كنسل مباشر من الالهة وكان الملك يعتبر الها معبودا حين حياته وبعد موته ..

غير ان الاهمية الحقيقية لمدينة « مروى » عاصمة مملكة كوش النوبية ، كانت تتمثل فى اعتبارها أكبر مركز « لصناعة الحديد » فى العالم القديم . فقد أنشئت المئات من الافران الضخمة لصهر معدن الحديد وتجهيزه للتصنيع ، وتصديره الى الخارج اما فى شكل سبائك أو فى شكل منتجات كاملة الصنع كالاسلحة الحديدية بأنواعها المختلفة ، بالاضافة الى المصنوعات الحديدية التقليدية كالفئوس والمناجل وأسنان المحاريث والمناشير وغير ذلك من الادوات المستخدمة فى الحرف والصناعات المعمارية والمدنية .

وقد ادى هذا الازدهار الصناعى والانتاجى الى نشوء علاقات تجارية دولية بين مملكة كوش وغيرها من الممالك الاخرى فى افريقيا وآسيا .. واحتك النوبيون بغيرهم من الامم الاخرى ، وتأثروا بالفعل بالعديد من الثقافات والحضارات التى كانت تتميز بها تلك الامم .

وعلى سبيل المثال ، فقد كان الاله « إبيد ماك » كبير الالهة فى المملكة على شكل أسد له ثلاثة رؤوس ، وهو ما يدل على تأثر الكوشيين بالفن الهندى .. أما الثقافة العامة للكوشيين ، فقد تأثرت — الى جانب قيامها على أساس الثقافة المصرية — بالثقافة التى كان يعتنقها العرب فى شبه الجزيرة العربية على الشاطىء الاخر من البحر الاحمر ، والذين كانوا على اتصال مستمر ودؤوب ببلاد كوش وأهلها على مدى آلاف السنين ..

اما اللغة الرسمية التى كانت سائدة فى بلاد كوش ، فقد كانت اللغة المصرية ، حين كانت مصر مهيمنة على تلك البلاد .. وكانت الكتابة قائمة على استخدام الابجدية الهيروغليفية التى كانت سائدة فى مصر .

ولكن عندما قل التأثير المصرى على بلاد كوش وبدأت مرحلة الاستقلال ، أنشأ الكوشيون لانفسهم ابجدية خاصة تتكون من ثلاثة وعشرين حرفا .. وصاروا يكتبون بها تاريخهم على جدران القصور والمعابد والمقابر .. ولكنها للاسف لغة غامضة تعرف علميا باسم «هيروغليفية مروى الغامضة » .

وقد نجح بعض علماء اللغات القديمة فى حل الشفرة الصوتية لتلك الحروف ، وعرفوا على وجه اليقين الصوت الذى يعبر عنه كل حرف ، ولكنهم للاسف لم يصلوا بعد الى كيفية تركيب الكلمات والجمل ، ولا معانى تلك الكلمات اذا عرفت .. وحتى يجىء اليوم الذى يكشف فيه النقاب عن معانى هذه اللغة ، فسوف يظل التاريخ الحقيقى لمملكة كوش دفين الغموض ، وبالتالى ستظل معارفنا محدودة عن تلك المملكة الافريقية التى ظهرت فى التاريخ القديم ، والتى يمكن اعتبارها بحق أرقى حضارة ظهرت فى افريقيا السوداء جنوب الصحراء .

وتدل الشواهد التاريخية على أن تلك المملكة العريقة ، قضت أيامها الاخيرة فى حروب مستمرة ضد قبائل الرعاة التى كانت تزحف الى كوش قادمة من الصحراء لتنهب وتدمر وتخرب هذه الحضارة المستقرة الراقية .

وقد انهكت الحروب اقتصاد البلاد ، وتفككت أوصال الدولة الكوشية .. وفى نفس الوقت كانت هناك على حدود كوش الشرقية (شمال الحبشة حاليا) دولة افريقية أخرى أصبحت قوية وقادرة ، هى « مملكة أكسوم » Axum

وفى سنة ٣٢٥ ق . م ، قام الملك « عيزنا » ملك أكسوم بغزو بلاد كوش ، وانتهت بذلك حضارة كوش العظيمة التى استمرت نحو ألف سنة، كما ساهمت العوامل المناخية فى اندثار تلك الحضارة ودفنها فى الرمال ، التى قد تكشف لنا فى يوم ما ، عن المزيد من المعرفة بتلك الحضارات الافريقية العريقة التى قامت واندثرت فى التاريخ القديم ..

الفصل الرابع

أمبراطورية غانا

أرض الذهب



الفصل الرابع

فى الوقت الذى افل فيه نجم الحضارة الكوشية فى مناطــق شرق افريقيا ، بدأ نجم حضارى آخر فى الشروق على الجانب المقابل ، فى المناطق الغربية للقارة الافريقيــة ، ودخلت تلك المناطــق دائرة التاريخ بظهــور امبراطورية « غانا » التى بلغت أقصى مراتب ازدهارها فى القرنين العاشر والحادى عشر الميلاديين .

ونود ان نلفت النظر الى ان امبراطورية غانا التى نشير اليها هنا ، لا تمت بصلة الى دولة « غانا » الحديثة التى تبعد عن منطقة الامبراطورية القديمة بنحو الف وستمائة « ١٦٠٠ » كيلو متر فى اتجاه الجنوب الشرقى.

وضئيلة هى المعلومات المتوفرة تاريخيا عن كيفية نشأة وظهور هذه الامبراطورية القديمة . ولكن هناك بعض القصص المتوارثة بين قبائــل « السونينك » Soninke الذين يعتبرون البذرة الحقيقية التى تفرعت عنها ارجاء الامبراطورية .. وقد انتقلت هذه القصص عبر أجيال متعاقبة غارقة فى القدم ، ومازالت حتى الان متداولة بين هذه القبائل التى تعيش فى تلك المنطقة .

وبطبيعة الحال فلا يمكن الاعتماد على تلك القصص الا فى الحــدود المنطقية التى تدعمها الشواهد الموجودة حاليا ، وبعد تخليص تلك القصص من ملمس الاساطير الخرافية الذى تتميز به كل الشعوب القديمة فى جميع انحاء الارض .

وتقول احدى هذه القصص ان قبائل « السونينك » كانت ومازالت تعيش فى الوادى الخصيب الممتد من شواطىء نهر السنغال وحتى انحناءة نهر النيجر فى الشرق . وقد تعرضت هذه القبائل فى القرن الرابع الميلادى الى غزو كبير من بعض قبائل « البربر » الرعاة التى كانت تعيش فى مناطق شمال افريقيا .

وقد امتزج البربر تماما بقبائل السونينك ، وعاشوا حياتهم ، وتكلموا لغتهم « لغة الماندى » Mande ولعلها من المرات القليلة فى التاريخ التى يعتنق المستعمرون فيها لغة وفكر الشعب المقهور .

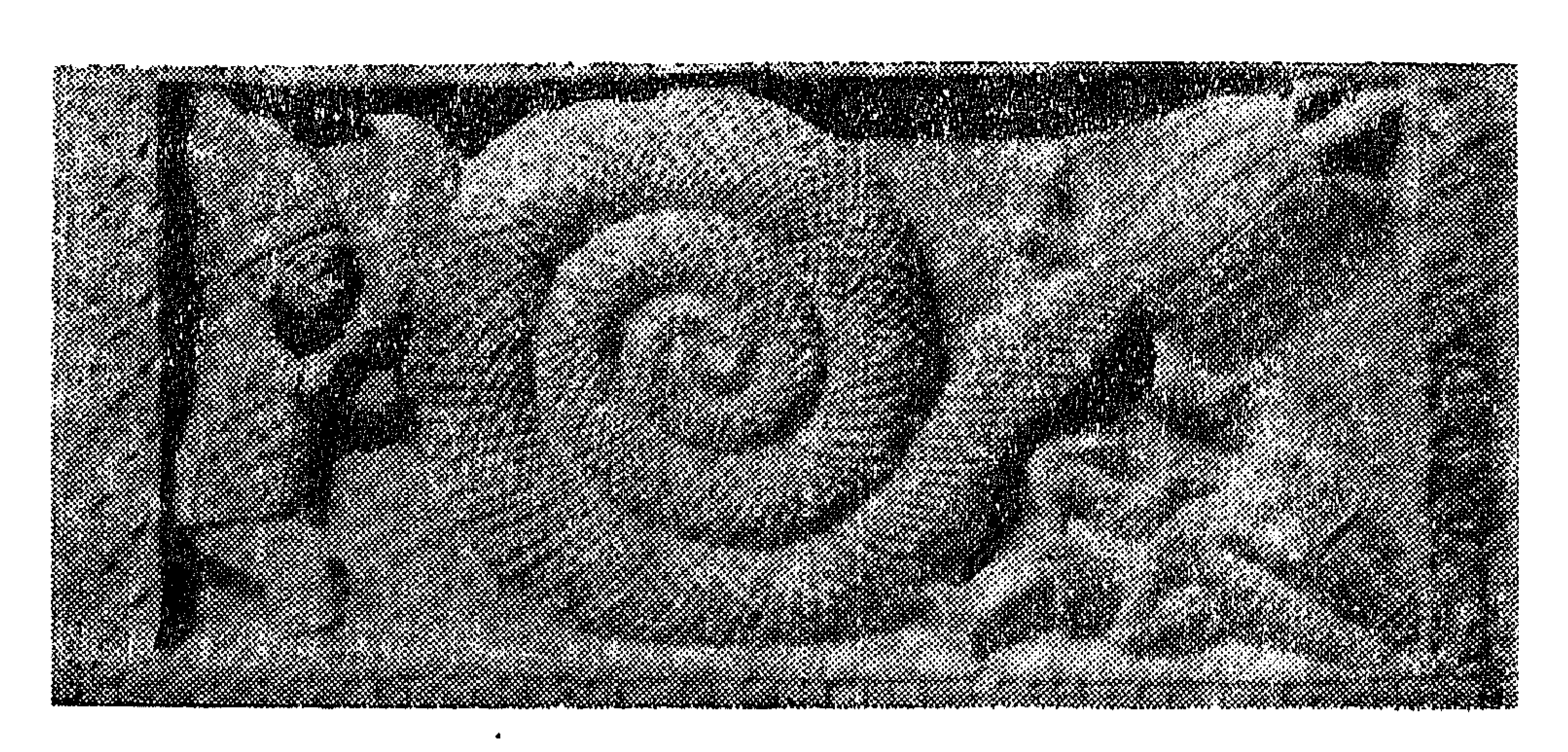
وكان من نتيجة هذا الاندماج العنصرى التام بين البربر والسونينك ، ظهور مملكة جديدة فى غرب افريقيا ، هى مملكة « وجادو » Wagadou وهو اسم مستمد من عشيرة « وجادو » الملكية التى كانت تعتبر الحكام التقليديين لقبائل تلك المنطقة .. ولكن ارض تلك المملكة سميت « أرض غانا » .. و « غانا » هذه كلمة باللغة الماندية معناها « أمير الجيوش » أو « قائد الجيوش » .. !

وفى القرن الثامن الميلادى ، كان العرب الذين وصلوا الى شمال افريقيا ونشروا الاسلام فيها يواصلون سعيهم الحثيث لنشر هذا الدين الحنيف فى مختلف البقاع .. ولذلك قاموا بعدة غزوات ــ لم تنجح اغلبها ــ لارض غانا ، التى أصبحت تعرف أيامئذ باسم آخر هو « أرض الذهب » ..

غير أن اثر هذه الغزوات العربية المتكررة لم يضع هباء منثورا ، بل ترك بصماته على كل القبائل التى كانت تعيش على أرض غانا ..

لقد اتجه علماء العرب المتخصصون ، من مؤرخين وجغرافيين الى دراسة « أرض الذهب » فوصفوها ، وحكوا مئات من الاقاصيص عن اهالى تلك الارض ، بل ولم يخلو الامر من أن كثيرا من عرب شمال أفريقيا قد رحلوا الى أرض الذهب ، وعاشوا فى وئام بين اهالى أرض الذهب ..

وكان هؤلاء العرب بطبيعة الحال من المسلمين الذين دعوا فى كد الى نشر الدين الجديد بين الاهالى .. وسرعان ما انتشرت المبادىء الاسلامية بين جميع افراد وعشائر قبائل السونينك ، وانتشرت المساجد فى جميع أرجاء المملكة .



الالـه الثعبـان «وجـادو بيـدا» ..
من نحت قبـائل «اليـوروبـا» ..

وهكذا دخل الاسلام الى ارض الذهب بالطريق السلمى ودون غزو حربى . وفى حقيقة الامر ان أمبراطورية غانا فى ذلك الوقت كانت على درجة كبيرة من القوة العسكرية ، بل ويمكن القول بأنها كانت أكبر قوة حربية فى افريقيا فى ذلك الزمن .

وقد ترجع تلك القوة بصفة أساسية الى ان قبائل الســونينك كانت تصنع اسلحتها من « الحديد » فى الوقت الذى كانت فيه القبائل الاخرى تصنع اسلحتها الاساسية من فروع خشب الابنوس الاسود الثقيل .

وقد امتدت اطــراف امبراطورية غانـــا فى منطقة واســعة بغرب أفريقيا .. فشملت الاراضى الممتدة من دولتى السنغال وجامبيا الحاليتين. حتى الشواطىء الغربية لبحيرة « تشاد » على الحدود الشرقية لنيجيريا كما امتد نفوذ الامبراطورية من حــدود الصحراء الكبرى شمـــالا ، حتى منطقة خليج غينيا من ناحية الجنوب .

كما ترجع القوة الاقتصادية لهذه الامبراطورية الى سبب جــوهرى آخر ، وهو أنها قد سيطرت على الطريق التجارى الهام الذى كان يسمى « طريق الملح والذهب » .

وكان يمتد من مناطق وسط القارة حتى يعبر الصحراء الكبرى . وكان هذا الطريق التجارى من الاهمية لدرجة انه كان له ملك خاص يحــكمه : يطلق عليه دائما اسم « كايا ماغان » Kayamaghan ومعناه « ملك الذهب »

وكان طريق الملح والذهب من اغرب الطرق والممرات التجارية التى ظهرت فى التاريخ القديم ، وحكاية « مقايضة » الملح بالذهب نفسها حكاية طريفـــة .

• • •

فى خارج الحــدود الجنوبية لامبراطورية غــانا ، كانت تعيش قبائل « الوانجـــارا » Wangara .. وكانت المنطقة التى تعيش فيها تلك القبائل ، خالية تماما من اى مصدر من المصادر الطبيعية التى تزود الانسان بملح الطعام ..

وكان لابد لقبائل الوانجارا ان تستورد هذه السلعة الحيــوية من خارج منطقتها ، خاصة وان الملح يعتبر رحيق الحياة للانسان الذى يعيش فى مناطق السافانا ذات الشمس الحارقة ، التى تشع حــرارة شديدة ؛ يخرج على أثرها الخزين الملحى الذى يتحصن به جسم الانسان ، فيتعرض الى العلل والامراض التى تؤدى الى موت حتمى .

وكان المصـــدر الرئيسى للملح فى مناطــق غرب افريقيا هو مدينــة « تغزه » Taghaza الواقعة فى عمق الصــحراء فى شمال غرب افريقيا حيث توجد فيها مناجم طبيعية هائلةللملح الصخرى الطبيعى ، ويعمل فيها آلاف عديدة من العبيد .

(فى القرن الرابع عشر الميلادى زار الرحالة العربى «ابن بطوطة»مدينة تغزة ، ووصف جدبها الشديد ، وخلوها من الاشجار أو أيه خضرة نباتية ؛ ووصف بدقة مبانيها وبيوتها الغريبة المشيدة من صخور الملح ، والمغطاة بأسقف من جلود الجمال .. ولا شىء هناك غير ذلك سوى بطاح شاسعة من الرمال الصفراء الملتهبة التى تحيط بالمدينة من كل جانب) ..

ورغم أن طريق الملح والذهب كان مستعملا منذ مئات السنين قبل ظهور « أمبراطورية غانا » ، الا ان ملوك غانا حين قويت شوكتهم فى القرن العاشر الميلادى فرضوا سيطرتهم على مناجم الملح بمدينة « تغــزة » . وقاموا بالاشراف على نقل كميات هائلة من الملح الصخرى عبر هذا الطريق الطويل من « تغزة » حتى مناطق التســويق فيما وراء الحدود الجنوبية لامبراطورية غانا .

وكانت قبائل « الوانجارا » كما قلنا هى المســتورد الرئيسى لهذه السلعة لحاجتهم الحيوية اليها .. وكانت المنــاطق التى تعيش فيها هذه القبائل غنية بالذهب بصورة غريبة ، لدرجة انهم كانوا يدفعون ثمن الملح ذهبا ، وبنفس الوزن فى اغلب الاحيان ..

وكانت عمليات مقايضة الذهب بالملح التى تتم بين قبائل السونينك التى تقدم الملح وقبائل الوانجارا التى تقدم الذهب ، من اغرب عمليات التبادل التجارى فى التاريخ ، وكانت تتم عادة طبقا لطريقــة تقليدية لها طقوس واجراءات .:.

كانت سوق « المقايضة » تقام على مساحة منبسطة واســعة على شاطىء النهر ، حيث يقوم التجار الذى يحملون الملح والمنتمين الى قبائل

السوتينك ، بتهيئة الارض التى ستقام عليها السوق ، ويقوم كل تاجر بوضع الكمية التى جلبها من صخور الملح فى كومة منظمة بشكل خاص ، وبضع وراء كومة الملح أنواع البضائع الاخرى التى ينوى بيعها ، مثل جلود الحيوانات المدبوغة والعاج وثمار الكولا والقطن ..

وبعد أن ينتهى جميع التجار من تكويم الملح وبضائعهم الاخرى على هذا النحو .. كانوا يقرعون طبول « الدبة » Daba ، وهى طبول ضخمة مصنوعة من جذوع الاشجار المجوفة .. وهذه هى العلامة والاشارة المتفق عليها بينهم وبين زبائنهم من قبائل الوانجارا ، دلالة على أن السوق قد بدأ ، وأنهم مستعدون للمقايضة ..

ولكن هذه المقايضة كانت تتم بدون أن يتبادل التجار مع زبائنهم كلمة واحدة .. فقد كان على التجار فور الانتهاء من قرع الطبول ، ان يتركوا اكوام بضائعهم ويرحلوا بعيدا لمسافة نصف يوم من الرحيل المتواصل .

وفى غيبة التجار ، تصل القوارب التى تحمل الراغبين فى الشراء من قبائل الوانجارا .. ويقومون بمعاينة اكوام الملح والبضائع الاخرى التى تركها التجار ، ويقدرون لكل كومة ما يقابلها من الذهب الذى يحضرونه معهم فى شكل تبر أو عروق أو قطع صغيرة من المعدن الخام .. ويضعون مقدار الذهب الذى حددوه لكل كومة ، ثم يرحلون بدورهم ويختفون فى منطقة بعيدة عن ساحة السوق .

وفى صباح اليوم التالى ، يعود التجار مرة أخرى الى ساحة السوق ، ليقدروا بدورهم قيمة الثمن الذى تركته قبائل الوانجارا مقابل كل كومة .. ويملك التجار مجتمعين حق قبول الثمن أو رفضه .. فاذا قبلوا الصفقة ، فانهم يدقون طبول « الدبة » مرة اخرى علامة على قبول الصفقة ، ويأخذ كل تاجر كمية الذهب التى تركت امام كومته ، ويرحل الجميع تاركين بضائعهم لمن اشتروها بتلك الطريقة الغريبة ..

أما فى الحالات التى يقرر فيها التجار أن كميات الذهب التى تركها الزبائن من قبائل الوانجارا ليست كافية ، فانهم يعلنون رفضهم لاتمام الصفقة ، فيتركوا اكوام بضائعهم ، والذهب المتروك أمام كل كومة ، ويرحلوا مرة أخرى بعيدا عن السوق بمسيرة نصف يوم .. وعندئذ تعود قبائل الوانجارا مرة أخرى لتختار بين احد أمرين : اما أن تستعيد ذهبها

وتعود دون اتمام الصفقة ، وأما أن تضع المزيد من الذهب أمام كل كومة ، وكان هذا الاحتمال الثانى هو الذى يحدث غالبا ، حيث أنهم يريدون الملح ولو دفعوا فيه أضعافا من وزنه ذهبا ..

ويعود التجار عندئذ الى ساحة السوق ليقرعوا الطبول دلالة على قبول الصفقة ، ثم يرحلون عائدين مرة اخرى الى أرض غانا ، للاستعداد مرة اخرى الى مقايضة جديدة .

وبالرغم من أن قبائل الوانجارا ظلت تحتفظ بأسرار طريقتها الخاصة فى الحصول على هذه الكميات الهائلة من الذهب ، الا ان هذا السر أصبح مكشوفا الان ، حيث توجد كميات كبيرة متوافرة من هذا المعدن النفيس ، فى المناجم العديدة التى تقع فى المناطق التى كانت تعيش فيها قبائل الوانجارا ، جنوب غرب أمبراطورية غانا القديمة ..



الفصل الخامس

أسطورة "واجادو بيدا"
وسقوط أمبراطورية غانا



موقع إمبراطورية غانا

الفصل الخامس

كانت قبائل السونينك تسمى « أمبراطورية غانا » التى أنشأوها فى تلك الرقعة الهائلة من مناطق غرب افريقيا « مملكة واجادو » Wagadou وكلمة « واجادو » كانت اللقب الذى يطلق على كل ملك من ملوكهم القدماء.. وهى فى نفس الوقت الاسم الاول لكبير آلهتهم « واجادو بيدا »WAGADOU BIDA ، وهو الاله « الثعبان » الذى كان يحـمى قبائلهم ، ويحرس كنوزهم وثرواتهم ، ويمنحهم بركات السعادة والنجاح والتقدم .

وفى منتصف القرن الحـادى عشر الميلادى ، حين وصلت « مملكة واجادو » أو « أمبراطورية غانا » الى أوج عظمتها ، كانت لها عاصمتان لا عاصمة واحدة .. العاصمة الاولى كانت تسمى « الغابة »EL GHABA وهى المقر الادارى الرسمى للمملكة ، وفيها يعيش الملك وبلاطه وكبـار الوزراء ورجـال الدين .. أما العاصمة الثانيـة فهى مدينة « كومبى » KOUMBI التى كانت تعتبر المركز التجارى للامبراطورية .

وكانت « كومبى » تعتبر من أهم الاسواق التجاريـة الضخمـة فى زمانها ، خصوصا فى تجارة الجملة ، حيث يعاد توزيع البضائع والسـلع المتداولة فى هذا السوق الى مناطق أخرى داخل وخارج امبراطورية غانا .

كانت تتم فيها أضخم عمليات التبادل التجارى لجميع أنواع البضائع التى كانت شائعة فى ذلك الزمن ، فالى جانب تجارة الملح والذهب — وهى فى حد ذاتها عماد من عمد اقتصاديات الامبراطورية — كانت هناك تجـارة رائجة للمواشى والاغنام والقمح والعنب والزبيب والفواكه المجففة والعاج واللؤلؤ ..

وكانت المدينة زاخرة بورش الاوانى الخزفية ومصانع الحدادين الذين يصنعون الاسلحة والادوات المدنية الاخرى ، والنحاسين الذين يصنعون الاوانى والتحف والحلى ، وصياغ الذهب والمتخصصين فى ترصيعه بالاحجار الكريمة .. كما كانت تنتشر أيضا مشاغل النساجين والمصانع ومدابغ الجلود وصناع الصنادل والمشغولات الجلدية الاخرى ..

أما مدينة « الغابة » التى كانت تعتبر العاصمة الملكية والدينية ، فكان طابع الحياة فيها يختلف تماما عن طابع الحياة السائد فى مدينة «كومبى» ..

وقد وصف « البكرى » — أحد الرحالة العرب الذين وصلوا الى تلك المناطق — هذه العاصمة الملكية التى كانت محاطة بالاسوار من كل جانب ، ويتوسطها المقر الملكى ، وفيه قاعة « العرش » التى كانت تستعمل فى الاستقبالات الرسمية ، وقاعة « العدل » حيث كانت تعقد المحاكمات الكبرى التى كان يتولاها الملك بنفسه ..

وحول المقر الملكى ، تنتظم بيوت جميلة تعلوها القباب والاسقف المخروطية ، ويعيش فيها كبار رجال الدين الذين يقومون بأعمال «السحر» التى تتدخل فى مختلف شئون الحياة اليومية ..

وفى ساحة خضراء واسعة أقيم مسجد جميل على الطراز الافريقى يؤمه المسلمون الذين كانوا يعيشون داخل العاصمة الملكية .. واغلبهم كانوا من الوزراء وكبار الموظفين الذين يشرفون على الخزانة والشئون المالية للمملكة .

وفى الناحية الاخرى من المدينة ، أقيم معبد « الغابة المقدسة » وهو المكان الذى تمارس فيه مراسم وطقوس الديانة والعقيدة المحلية .. وهو مكان فى غاية التقديس ، ويحيط به جو كثيف من الغموض ، ويقوم « الكهنة » بحراسته ليلا ونهارا ، ولا يسمح لاحد بالدخول اليه الا باذن خاص ولمرة واحدة طوال حياته .. حتى الملك نفسه ، كان لا يدخل هذه الغابة المقدسة الا مرة واحدة فقط ، هى يوم تتويجه واعتلائه عرش الملك .

والغريب انه بالرغم من انتشار الاسلام بين قبائل السونينك ، الا انهم احتفظوا بعقائدهم المحلية المتوارثة وظلوا يمارسونها الى جانب الشعائر الاسلامية .. وكانوا يؤمنون بأن « الاله الثعبان الاكبر واجادو بيدا » يعيش فى كهف مقدس مظلم داخل الغابة المقدسة .

والاغرب من ذلك أن قبائل السونينك ظلت تتوارث جيلا بعد جيل ، مجموعة من القصص والاساطير التى تؤكد ان نجاح وازدهار امبراطوريتهم القديمـــــة ، يرجـــــــع الى الالــــــه الاكبر الثعبـــــــان « وجـــــادو بيدا » .. فكان هو السبب المباشر فى نجاح التجارة وزيادة كنوز الدولة وسعة رزقها ، وحين مات هذا الاله وانتهى أمره ، ماتت على اثره تلــك الامبراطورية القديمة التى كانت تسيطر على مناطق واسعة الارجــاء فى غرب افريقيا .

وهناك اسطورة شعبية مازالت تتداول بين أحفاد قبائل السونينك حتى اليوم ، تحكى نهاية الاله « واجادو بيدا » ونهاية عصر امبراطوريتهم القديمة .

• • •

تقول الاسطورة ان الاله الثعبان « واجادو بيدا » كان يقوم بحماية السونينك وزيادة ثرواتهم فى مقابل ثمن رهيب كانوا يقدمونه عن طيب خاطر فى احتفال صاخب يقام كل عام .

وفى هذا الاحتفال كانت تقام مسابقة جمال بين العذارى الجميلات اللاتى تم اختيارهن من كافة مناطق المملكة ، حيث تختار من بينهن واحدة ، هى اكثرهن جمالا ورقة .. فيقدمونها قربانا وضحيه للاله « وجادو بيدا » القابع فى كهفه المظلم ، والذى يلتهم الصبية فى لمح البصر . وبذلك تضمن القبائل حماية الاله حتى موعد الاحتفال الجديد فى العام القادم .

ويقال انه فى الاحتفال الذى أقيم عام ١٢٤٠ م ، اشتركت فى مسابقة الجمال عذراء جميلة اسمها « ضيا » DIA ، كان قد سبق اختيارها باعتبارها أجمل الجميلات بالعاصمة التجارية « كومبى » .

وفى المسابقة النهائية يوم الاحتفال ، اعتبرت « ضيا » اجمل العذارى الجميلات اللاتى جئــن من كافة مناطــق واقاليم الامبراطورية .. وبهذا الاختيار تحدد المصير المحتوم الذى ستصير اليه هذه العذراء الجميلة ، حين يضحى بها قربانا للاله « وجادو بيدا » .

ولكن الحكاية تقول أن « ضيا » كانت تعيش قصـــة حب عميق مع خطيبها « عمادو » AMADOU .. وهو شاب قوى كان يعتبر احسن الفرسان المحاربين فى « كومبى » ..

وفى شجاعة نادرة ، اعلن « عمادو » رفضه لهذه العادة البربرية الهمجية ، وحاول أن ينقذ حبيبته بالحسنى فلم يقبلوا ، ولذلك فقد دبر « عمادو » فى نفسه أمرا ..

وفى الليل ، قبل تقديم العذراء الجميلة قربانا وضحية للاله الثعبان « وجادو بيدا » تسلل « عمادو » سرا الى الغابة المقدسة ، ودخل الكهف المظلم الذى يتخذه الاله مسكنا وعرشا .. وهناك أخرج عمادو سيفه البتار من غمده ، وبضربة قوية مسددة باحكام ، أطاح براس الثعبان التى طارت فى الهواء لمسافة بعيدة جدا ، حتى هبطت على أرض « بامبوك» BAMBUK التى أصبح ترابها فى الحال من الذهب الخالص ..

ولدهشة عمادو ، فان الاله الذبيح لم يسقط على الارض بعد أن طارت راسه ، وانما ظهرت له رأس جديدة سرعان ما أطاح بها سيف عمادو البتار .. ولكن الراس الثانية طارت فى الهواء لمسافة بعيدة وهبطت فى مدينة « بورى » BURE حيث امتلأت المدينة على الفور بكميات هائلة من الذهب .

وهكذا كلما قطع عمادو للاله الثعبان راسا ، ظهرت له رأس جديدة تطير فى الهواء لتهبط فى مناطق نائية من الاراضى التابعة للامبراطورية فتملأها بالذهب .. الى أن قطع عمادو الراس السابعة ، وعندئذ استسلم الثعبان للهزيمة وسقط على الارض .. وعندئذ خطف الفارس الشجاع عروسه الجميلة على صهوة حصانه ، وانطلق بها الى حيث لم يرهما احد بعد ذلك أبدا ..

وتواصل الاسطورة سرد الاحداث التالية على مصرع الاله الثعبان واجادو بيدا ، فتقول أن قبائل السونينك كلها اصابها الحزن بعد هذا الحادث الرهيب ، وظلوا يبكون أياما طويلة ، ويذرفون من الدموع أنهارا لعل الاله يعود الى الحياة من جديد .. ولكن جهودهم ضاعت هباء .

وسرعان ما جفت الارض ، وانتشرت المجاعة ، وتحولت الاشجار والاعشاب والنباتات كلها الى هشيم تذروه الرياح .. وماتت القطعان والحيوانات والدواجن كلها من شدة العطش ..

وحتى يهرب الناجون من هذا الجحيم المفاجىء ، انطلقوا يتجولون كالرعاة ، وانفرط شملهم واتحادهم ، ودخلت الى التاريخ الافريقى ذكريات

عن امبراطورية كبرى ظلت لمئات السنين من أقوى ممالك وامبراطوريات غرب افريقيا وعلى تخوم الصحراء الكبرى ..

• • •

ولكن ما تقوله الاسطورة شىء ، ووقائع التاريخ المسجلة والمعروفة شىء اخر .. ففى بداية القرن الحادى عشر ، وصلت أمبراطورية غانا فعلا الى اقصى قوتها ، حيث فرضت سيطرتها على بطاح شاسعة ، وكان لها جيش قوى يتكون من أكثر من مائتى ألف « ٢٠٠,٠٠٠ » محارب .. وكان ملكها من الغنى والثراء بحيث كانت عصاه الغليظة التى يستند اليها عبارة عن قضيب مزخرف من الذهب الخالص ..

وقبل ان ينتهى القرن ، وهنت قوى أمبراطورية غانا وتفككت أوصالها وتعرضت الى كثير من المتاعب .. ففى سنة ١٠٤٢م ، ظهرت دولة اسلامية قوية فى المغرب هى دولة « المرابطين » EL MORAVIDES التى التى كانت صارمة فى الاخذ بمذهب السلف الصالح من المسلمين ، وعملت على نشر الاسلام فى جميع المناطق ذات الديانات الوثنية فى غرب افريقيا ..

وما أن حل عام ١٠٥٤م ، حتى قامت قوات المرابطين بالهجوم على مدينة « كومبى » العاصمة التجارية لامبراطورية غانا .. ولكن المدينة لم تستسلم بسهولة وظلت تقاوم الهجوم والحصار لمدة اثنتين وعشرين سنة متواصلة حتى سقطت فى النهاية وضمها المرابطون الى أراضيهم ..

وفى سنة ١٠٨٧ م — بعد «١١» عاما من سقوط كومبى — استطاعت عشيرة « السيسى » SISSE ، وهى من العشـائر المحاربة القـوية التى تنتمى الى قبائـل السونينك ، أن تعـود الى اعتلاء عرش الامبراطورية وتحاول تحرير أراضيها ..

ولكن الامبراطورية كانت مفككة ، واصبحت شعوبها وقبائلها شيعا منعزلة ، لم يعد يربطها اتحاد من أى نوع كان .. واستمرت محاولات ملوك « السيسى » فى اعادة توحيد أراضى وشعوب الامبراطورية لمدة تزيد على مائة سنة دون جدوى ..

واخيرا فى سنة ١٢٠٣ م ، استطاعت قبيلة « سوسو » SUSU التى كانت تكن العداء دائما لقبائل السونينك ، أن تغزو أراضى الامبراطورية المحتضرة ، واستولت عليها وعلى كل مازال موجودا من كنوزها وثرواتها ، بل واستولت ايضا على كل شعب الامبراطورية من قبائل السونينك ، وحولتهم الى عبيد ..

وهكذا اختفت اول امبراطورية افريقية سوداء ظهرت وازدهرت فى العصور الوسطى ..



الفصل السادس

مذبحة الإخوة الأحد عشر وظهور امبراطورية مالى



موقع إمبراطورية مالى

الفصل السادس

كانت قوات قبائل « السوسو » التى قامت بغـزو « كومبى » تحت قيـادة الملك « سومانجـورو » SUMANGURU وما أن سقطت العاصمة فى يد هذا الغازى الجديد ، حتى فرض عليها نظاما استبداديا ، وجزية طائلة أفلست أهلها ، الذين سارع الكثير منهم الى الفرار شمالا ، حتى وصـلوا الى مدينـة « والاتا » WALATA التى كانت بعيـدة عن سيطرة قوات الملك سومانجورو ، ولم تدخل فى حدود المملكة الجديدة التى انشأها هذا الملك ..

وبوقوع مدينـة « كومبى » فى هذا الاسر ، زالت صفتها الرئيسية كمركز تجارى ، وانعدم نشاطها فى هذا المجال تماما .. وبالتالى فان المملكة الجديدة فقدت أملها فى تبوؤ المكانة الاقتصادية الرفيعة التى كانت تتمتع بها امبراطورية غانا وقبائل السوننيك .

وقد استمر حكم الملك سومانجورو اثنتين وثلاثين سنة ، استطـاع خلالها ان يمد اطراف مملكته بضم أراضى وقبائل الممالك المجاورة .. وقد اسـتطاع غـزو مملكة « كانجـانا » KANGABA التى انشأتها قبائل « الماندنجـو » MANDINGO واستولى عليها بصعوبة ، نظرا لان قبائل الماندنجو كانت من اقوى القبائل الافريقية اتحادا ، فقاومت بشدة حتى تحررت أراضيها واستقلت من جديد .. ثم ازدادت قوة وقامت بدورها بغزو وضم أراضى القبائل الاخرى التى تعيش فى مناطق جنوب وجنوب شرق مملكتهم « كانجابا » ..

● ● ●

ومن القصص والاساطير التاريخية التى تتوارثها قبائل الماندنجو حتى الان ، أسطورة تحكى قصة الصراع بينها وبين الملك المفترى الظالم سوما نجورو الذى كانت ترتعد فرائصه خوفا من انتقام الماندنجو منه حين تسنح لهم الفرصة .

لذلك فقد دبر سومانجورو حيلة استطاع بها أن يجمع الامراء الاشقاء الاثنى عشر الذين كان ينحصر فيهم حق اعتلاء عرش كانجابا ..

وبطريقة وحشية ذبح سومانجورو أحد عشر أميرا ، وترك أخاهم الاصغر الامير « سوندياتا » ولم يذبحه استصغارا لشأنه .. فقد كان هذا الامير الطفل كسيحا لا يستطيع تحريك قدميه ، ولهذا فلم يتوقع سومانجورو أى خطر من جانب هذا الامير فانقذه من الذبح ..

ومعنى كلمة « سوندياتا » باللغة الماندية ، هو « الاسد الجائع » .. وتقول الاسطورة أن القوة السحرية الكامنة فى هذا الاسم هى التى منحت الامير سوندياتا القدرة على أن يقف على قدميه ؛ والتصميم على استعادة أمجاد مملكة كانجابا والعمل على رقيها ..

وأيا كانت القيمة الحقيقية للمعلومات التاريخية التى تتضمنها هذه الحكايات والاساطير المتوارثة ، الا أن الشواهد الفعلية التى ذكرت فى التاريخ المكتوب ، تؤكد وقوع أحداث مشابهة ..

ويقول التاريخ المكتوب أنه فى سنة ١٢٣٥م ، استطاع سوندياتا أن يستعيد ويعتلى عرش مملكة « كانجابا » وان يكون جيشا قويا ، غزا به مملكة « السوسو » وقتل الملك سومانجارو ، واستولى به على معظم المناطق التى كانت تابعة من قبل لامبراطورية غانا ..

• • •

وحين اعتلى سوندياتا عرش كانجابا ، كانت مدينة « جريبا » JERIBA عاصمة لتلك المملكة .. ولكن حين اتسعت رقعة الاراضى التى فتحها سوندياتا وضمها الى امبراطوريته الوليدة ، وجد ان من المناسب نقل العاصمة الى مدينة « نيامى » NIAMI الواقعة على نهر النيجر ، فى مكان يتوسط أرجاء الامبراطورية الجديدة التى أطلق عليها اسم « أمبراطورية مالى » MALI

و « مالى » باللغة الماندية معناها : « حيث يعيش الملك » .. وكان الدين الرسمى لتلك الدولة الجديدة هو الاسلام .. !

ويرجع السبب فى اعتناق جميع قبائل « الماندينك » للدين الاسلامى ، الى اعتناقهم وايمانهم المطلق بتعاليم « المرابطين» .. الدولة المسلمة فى شمال افريقيا ..

ورغم ان قبائل الماندينك تعتبر أولاد عمومة لقبائل السونينك وقبائل السوسو حيث يتكلم الجميع لغة واحدة هى اللغة « الماندية » .. الا ان الاسلام لم يتغلغل بين السونينك والسوسو بنفس قدر تغلغله فى قبائل الماندينك ..

وكان الدين الاسلامى الذى اعتنقته امبراطورية « مالى » منذ البداية خير عون للملك سوندياتا — وكان بدوره مسلما متعصبا الى اقصى حد — فى نشر السلام واستتباب الامن والنظام فى جميع أرجاء الامبراطورية حيث استعيدت الصلات مع التجار المسلمين الذين كانوا قد انتقلوا الى مدينة « والاتا » هربا من ظلم الملك سومانجورو كما أشرنا ..

وفى سنة ١٢٤٠ م ، قام سوندياتا بغزو مدينة « كومبى » وضمها الى امبراطوريته ، وبذلك تمكن من القضاء نهائيا على آخر ذكريات أمبراطورية غانا ، كما قضى تماما على المملكة قصيرة الاجل التى أقامتها قبائل السوسو ..

وتؤكد الشواهد التاريخية أن الملك سوندياتا كان حاكما متنورا ، كافح وناضل من أجل مصلحة شعبه وأقام نهضة اقتصادية ، تمثلت فى نشر التجارة والصناعة ، كما شجع شعبه على الزراعة واستنبات محاصيل جديدة ، فأدخل زراعة القطن الذى أصبح دعامة اساسية فى اقتصاديات الامبراطورية .

وفى سنة ١٢٥٥ م ، مات الملك سوندياتا بطريقة فجائية غامضة ، ولكنه ترك امبراطورية قوية تعتبر تاريخيا الامبراطورية الثانية من سلسلة الممالك والامبراطوريات الكبرى فى افريقيا السوداء ..

الفصل السابع

مانسا موسى

او موسى الأسود امبراطور مالى



الفصل السابع

اصبحت امبراطورية مالى مسيطرة على بطــاح شــاسعة فى غرب افريقيا ، وفرضت حكمها على مساحة من الارض اكبر بكثير من المساحة التى كانت تحت سيطرة امبراطورية غانا ..

وحين مات الملك سونديانا ، كانت مساحة امبراطورية مالى اكبر من المساحة التى تشغلها حــاليا دولة مالى الحــديثة .. ثم قام ابنه الملك « على » ULI الذى تولى عرش الامبراطورية من بعده بفتح المزيــد من الاراضى فى كافة الاتجاهات .

وكان الملك على مسلما راسخ الايمان كأبيه ، ومؤمنا اشــد الايمان بشريعة الاسلام .. ولذلك فقد حرص منذ البداية على أن يشد الرحال فى رحلة مقدسة الى « مكة » لحج بيت الله . وانشأ من أجل دلك ما يسمى بطريق الحجاج ، وهو طريق طويل يخترق القارة من الغرب الى الشرق حتى يصل الى سواحل البحر الاحمر .

وبمجرد أنشاء هذا الطريق وتحديد معالمه ، اصبح ذا اهمية بالغة للمبادلات التجارية التى أصبحت تتم بين مناطق غرب افريقيا وجميع المناطق الافريقية التى يخترقها الطريق المتجه شرقا ، وبين التجار العرب فى مناطق شبه الجزيرة العربية ..

كذلك فقد اصبحت رحلة الحج التى قام بها الملك الحاج على ، واجبا دينيا لابد أن يؤديه جميع الملوك الذى اعتلوا عرش امبراطورية مالى تباعا ..

وفى سنة ١٢٧٠م ، مات الملك على وتولى الملك من بعده اخوه الملك « كاريفا » KARIFA وكان لسوء الحظ مختل العقل غريب الاطوار ، ومازالت بعض القبائل الناطقة بلغة « الماندى » تحكى حكايات غريبة عن هذا الملك وكيف كان يسلى نفسه بقذف السهام والرماح على الاحياء من الرجال والنساء فى حوش قصره ..

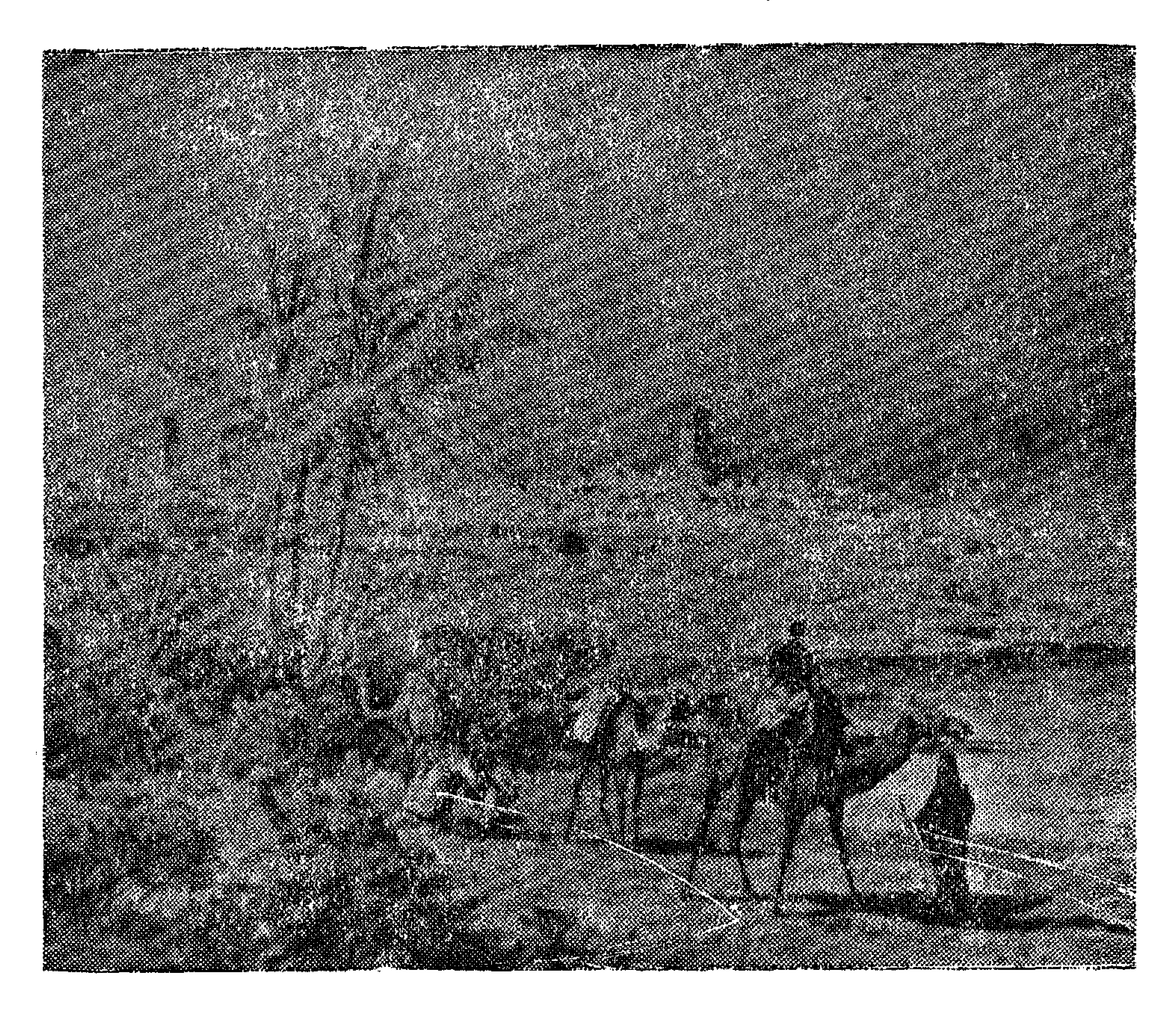
ولحسن حظ الامبراطورية الفتية ، فان حكم الملك « كاريفا » لم يستمر طويلا .. واعتلى العرش من بعده ملوك خاملون وبدون كفاءة ، ولم يتركوا مآثر تذكر . وقد استمر حال الامبراطورية على هذا النحو حتى كادت أن تتفكك وتضعف قوتها ..

• • •

وفى سنة ١٣٠٧م ، تولى عرش الامبراطورية ملك عظيم اسمه « مانسا كانكان موسى » MANSA KANKAN MUSA الذى عرف واشتهر باسم « موسى الاسود » .. وكان حقه فى العرش مستندا الى اعتباره حفيدا لاحدى شقيقات جده الاكبر الملك سوندياتا .. ومنذ هذا التاريخ اصبحت امبراطورية مالى أعظم شأنا ، وبدات عصرا جديدا من الازدهار والتحضر .

لم يكن « موسى الاسود » عند قبائل الماندينك ملكا يحكم الناس والارض فحسب ، وانما كان من أولياء الله .. وهى مكانة دينية رفيعة دخلت الى قلوب شعوب وقبائل الماندينك الذين كانوا يؤمنون بأن الله قد الهم « موسى » القدرة على حكم اكبر امبراطورية اسلامية سوداء فى فترة العصور الوسطى ..

سيطر موسى الاسود على « طريق الملح والذهب » الذى كان يخترق الصحراء الكبرى ، ثم فتح وضم لامبراطوريته بلادا شاسعة الارجاء ، فامتدت أملاكه غربا حتى شواطىء الاطلنطى ، وشمالا حتى مناجم الملح فى « تغزة » كما ضم الاراضى الاسطورية لمملكة « الوانجارا » WANGARA ومناطق « البامبوك » BAMBUK وشرقا حتى وصل الى مناجم



على مشـــارف مدينـــة « تمبوكتــو »

النحاس الوفيرة الانتاج فى منطقة « تاكيدا » TAKEDDA وقد اصبح انتاج النحاس وسباكته احد العمد الاساسية فى اقتصاديات الامبراطورية.

وقد ذكر المؤرخ العربى « العمرى » (١) بعض المآثر التى اشتهر بها « موسى الاسود » . فقد عمل هذا الملك المتنور العظيم على جعل بلاده منارة للعلم ونشر الدين الاسلامى .. فجعل من مدينة « تمبوكتو » مركزا TIMBUKTU للعلم والتدريس ، يفد اليها طلاب العلم من المسلمين من شتى انحاء افريقيا ومن البلاد العربية ، حيث يتدارسون شئون الدين والعلوم الاخرى فى « جامعة سنقرة » SANKOREذات الشهرة العلمية فى فترة العصور الوسطى .

وقد ذاعت شهرة امبراطورية مالى على يد « موسى الاسود » بين جميع الشعوب المسلمة فى افريقيا وآسيا .. وكانت رحلته المقدسة الى مكة لحج بيت الله مناسبة لفتت الانظار الى عظمة وثراء الممالك والامبراطوريات المسلمة فى افريقيا السوداء .. وكان البذخ غير المألوف فى القافلة التى يسير فى ركابها موسى الأسود الهاما لعديد من القصص والأوصاف التى دبجها كتاب العرب ..

وذاعت شهرة « موسى الاسود » فى العالم الاسلامى ، واعترف به على اساس انه « ملك مالى » و « خان افريقيا » .. وقام الرسامون برسم صورته ، وهو يرتدى عباءة الملك الفخمة ، وعلى رأسه تاج من الذهب الخالص المرصع بالجواهر والاحجار الكريمة ، وفى يده كرة ضخمة من الذهب ، وفى يده الأخرى صولجان الملك من الذهب الخالص ..

كذلك فقد جذبت امبراطورية مالى أنظار الرحالة المسلمين والعرب ، فزاروا تلك البلاد ووصفوها بالتفصيل .. وفى الربع الاول من القرن الرابع عشر الميلادى ، قام الرحالة العربى « ابن بطوطة » بزيارة مالى اثناء السنوات الاخيرة من حكم « موسى الاسود » ..

---

(١) هو ابن فضل الله احمد العمرى ، ولد بدمشق عام ١٣٠٠م ومات عام ١٣٨٤م . وقد عمل فى خدمة السلطان الناصر بن قلاوون ، وله كتاب شهير فى الجغرافيا هو « مسالك الابصار فى ممالك الامصار » .

ووصف ابن بطوطة حالة الامن والاستقرار والعدالة السائدة فى ارجاء امبراطورية مالى المسلمة .. وكيف ان الاهالى والاجانب يعيشون فى أمان تام ، دون خوف على ممتلكاتهم أو ثرواتهم .. ولا يوجد لصوص يجسرون على ارتكاب السرقة ، ولا أشرار يهددون الناس فى حياتهم ..

وقد ذكر ابن بطوطة مدى حرص الاهالى على اداء صلاة الجمعة . وان المساجد كانت تمتلىء بجماعات المسلمين الذين يتسابقون فى الوصول الى داخل المساجد منذ الصباح الباكر ، حتى يؤدى كل واحد منهم صلاته وهو أقرب ما يكون الى « الامام » .. ووصف النظافة الشديدة التى يتمسك بها كل الناس ، وحرصهم الشديد على حسن مظهرهم ، ورغبتهم العارمة فى التعلم وتعليم أولادهم فى المدارس الاسلامية وحلقات الدرس التى كانت تعقد فى الجوامع والمساجد .

ولكن ابن بطوطة صدم حين رأت عيناه نساء السلطان وجميع النساء اللاتى يخدمن فى القصر عرايا لا يتسترن بشىء على الاطلاق .. واشتدت دهشته حين جاءت نحو مائة من النساء العاريات يحملن اوانى واطباق الطعام ، ويتولين خدمة الملك وضيوفه على مائدة الغداء ..

وقد استنكر ابن بطوطة هذا العرى واعتبره معارضا لتعاليم الاسلام بطبيعة الحال ، الا ان ابن بطوطة وغيره ممن لهم رأى مماثل فى هذا الصدد ، لا يدركون مدى تغلغل التراث الثقافى فى نفوس قبائل « الماندينك » والقبائل الافريقية بصفة عامة . فهذه هى العادات والتقاليد التى تتوارثها الاجيال المتعاقبة والتى تعتبر فى عرفهم شيئا طبيعيا ليس محل نقاش ولا جدل .. ولهذا فلم يكن من السهل على قبائل الماندينك — رغم اعتناقها الاسلام — أن تهجر ما ورثته من عادات الاباء والاجداد منذ القدم ..

واستمر حكم « موسى الاسود » طوال خمس وعشرين سنة ، بلغت فيها امبراطورية مالى قمة حضارتها وقوتها ، الى ان مات سنة ١٣٣٧م ، فبدأت عوامل الضعف والتفكك تحل فى أرجاء المملكة .

وتولى الملك من بعده ابنه « مانسا ماجان » MANSA MAGHAN واستمر حكمه نحو اربع سنوات ، تعرضت فيها الامبراطورية لكارثة كبرى .. فقد نهبت مدينة « تمبوكتو » وخربت تماما ، وأحرقت المساجد والقصور وتحولت البيوت الى هشيم وأنقاض ..

وليس من المتصور أن امبراطورية مالى قد زالت واختفت بين يــوم وليلة ، وانما استمرت موجودة على مدى ثلاثة قرون أخرى من هذا التاريخ ولكنها كانت فترة قاسية تتخللها الحروب المستمرة بين قبــائل الماندينك وأعدائهم من القبائل المجاورة .

وفى اواخر ايام هذه الامبراطورية . تعرضت أراضيها للغزو الشامل ومن جميع الجهات ، فقد هجمت عليها قبائل « السونغاى » SONGHAI من الشرق ، كما هجم بدو الصــحراء من ناحيــة الشمال ، أما المناطق الجنوبية للامبراطورية فقد غزتها قبائل « الموزى » MOSI التى تستوطن شواطىء نهر فولتا العليا .

وسقطت مدينة « تمبوكتو » ثم سقطت بعدها مدينة « والاتا » فى ايدى قبائل « الطـــوارق » TUAREGS ثم انفصلت الممالك الصغيرة التى كانت تضمها الامبراطوربــة مثــــل « مملكة تكرور » TEKRUR ومملكة « سونغاى » ..

وفى منتصف القرن السابع عشر الميلادى ، كانت امبراطورية مالى قد انمحت تماما ، ولم يبقى منها سوى مملكة « كانجابا » .. وهى الموطن الاصلى الذى خرجت منه قبائل الماندينك ..



الفصل الثامن

امبراطورية السونغاى

والجيش الذى اخترق الصحراء الكبرى



موقع إمبراطورية السونغاى

الفصل الثامن

لقد بلغت أمبراطورية غـــانا وأمبراطـــورية مالى شـــأوا عظيما ، واستطاعتا السيطرة على بطاح واسعة من مناطق غرب أفريقيا (مناطق غرب الســـودان جنـــوب الصـــحراء الكبرى) . ولكن أيـــا من هـــاتين الامبراطوريتين لم تبلغ ما بلغته امبراطورية « السونغاى » SONGHAI من القوة والسيطرة فى خـــلال القرنين الخامس عشر والســـادس عشر الميلاديين ..

ويرجع اصل قبائل السونغاى الى قبيلة نشأت على ضفاف نهـــر النيجر الاوسط فى الفترة ما بين القرن السابع والقرن التاسع الميلاديين ، حين غزت قبيلة « ضيا » DIA وهى احدى قبائل البربر تلك المناطق وأسسوا اسرة حاكمة هى أسرة «ضيا » وتولى الملك أول ملك لهذه القبائل وكان اسمه « ضيا العالمين » DIA EL ALAMEN

وفى بداية القرن الحـــادى عشر ، وبالتحـــديد فى ســـنة ١٠١٠م اسس الملك « كوزى » KOSI أول عاصمة للمملكة ، وهى مدينـــة « جاو » GAO وتقع شرق الثنية الشمالية لنهر النيجر . وقد اعتنق هذا الملك الدين الاسلامى ، وأصبح من المعتاد بعدئذ ، أن يكون حاكم قبائل السونغاى من المسلمين ، رغم أن القبائل نفسها لم تعتنق الاسلام وظلت على ديانتها القبلية .

وقد اصبحت « جاو » عاصمة مملكة السونغاى مركزا تجاريا هاما فى تلك المنطقة ، وجاء اليها التجـــار العرب والمسلمين من مصر ومن البـــلاد الاسلامية فى شـــمال افريقيا ، وجعلوها محطة لتجارتهم سواء مع مملكة السونغاى نفسها ، أو مع القبائل والممالك الاخرى من جيرانها فى المناطق الواقعة غرب وجنوب مملكة السونغاى .

وسرعان ما اصبحت مدينة « جاو » مثل مدينة « تمبوكتو » من ناحية الدعوة الى اعتناق الديانة الاسلامية ، فقد امتلأت هذه العاصمة بمجالس العلم ، ووفد اليها العلماء المسلمون من الدول الاسلامية فى شمال وشمال شرق القارة ، كما وفد اليها طلاب العلم من مناطق المملكة ومن المناطـــق الاخرى المجاورة .

وتدل الشواهد التاريخية على أن مملكة السونغاى قد بدأت بالفعل فى سنة ١٠١٠م واستمرت حتى سنة ١٣٢٥م حين قام « موسى الاسود » بغزو مدينة « جاو » وضم مملكة السونغاى الى امبراطورية مالى .

وفى رحلة الحج الشهيرة التى قام بها موسى الاسود الى بلاد الحجاز، كان يصطحب معه فى تلك الرحلة اثنين من ابناء الملك « ضـــيا السباعى» DIA ASSIBAI همـــا الامير « على كـــولون » ALI KOLON والامير « سليمان نار » SOLAYMAN NAR

وكان هذان الاميران يبديان ولاءهما للملك « موسى الاســـود » فى الظاهر ، بينما كانا فى حقيقة الامر يقـــومان بسرقة الاسلحة والعتاد من جيش امبراطورية مالى ، ويرسلانها سرا الى مدينة « جاو » ..

وبعد موت « موسى الاسود » وتولى ابنه ماغان الحكم من بعده ، استطاع الاميران أن يهربا من الاسر ويعـــودا الى « جاو » عاصمة مملكة السونغاى .. وكانت المملكة حينئذ بدون حاكم أو ملك بعـــد موت أبيهما « ضيا السباعى » .

وعلى الفور ، أعلن « على كولون » ــ باعتباره الابن الاكبر ــ نفسه ملكا على السونغاى ، واسس اسرة حاكمة جديدة هى اسرة « السنى » SONNI وبدأ فى تدعيم مملكة السونغاى وتقويتها بماضمه اليها من أرض جديدة ، حتى أصبحت مملكة ذات شـــأن كبير فى تلك المنطقة من افريقيا .

وفى سنة ١٤٠٠م ، قام الملك السنى « مادوجا » MADOGA بغزو امبراطورية مالى ونهب عاصمتها ، وضم ما كانت تسيطر عليه من ارض الى مملكته . وبدات بذلك مملكة السونغاى عصرا من الحروب والغزوات التوسعية فى مناطق غرب ووسط السودان ..

وفى سنة ١٤٦٤م ، تولى الملك السنى « على بر » ALI BER او « على الاكبر » كما سمى فيما بعد .. وقد استمر حكمه حتى سنة ١٤٩٢م ، واصبحت مملكة السونغاى فى عهده مملكة يهاب جانبها ويعمل لها الف حساب .. كما دخلت سيرة هذا الملك مجال الاساطير ، ومازالت تحكى عنه حتى الان بعض القصص والحكايات التى تتردد بين بقايا قبائل السونغاى ويبلغون نحو نصف مليون نسمة يعيشون الان على ضفاف النيجر فى شمال غرب دولة نيجيريا الحديثة ..

وكان «على الاكبر» حاكما مستبدا شديد القسوة على الاخرين ، رغم ان شعبه من السونغاى كانوا يعاملونه على اساس انه « اله » وكان مولعا بالحياة الحربية بل وكان يمارس الحكم من المعسكر المتنقل الذى ينتقل مع جيشه كلما كانت هناك غزوات جديدة .

وكان من أهداف على الاكبر الاستيلاء على جميع المناطق المحيطة بثنية نهر النيجر بما فيها مدينة « تمبوكتو » باعتبارها — فى اعتقاده — ارضا تدخل فى حق قبائل السونغاى ، ولذلك فقد عزم على تحرير تلك المناطق وضمها الى مملكته ..

وكانت مدينة « تمبوكتو » قد وقعت فى ايدى قبائل « الطوارق » منذ سنة ١٤٣٣م وظلت تحت سيطرتهم منذ هذا التاريخ ، حتى قام « على الاكبر» بغزوها سنة ١٤٦٨ م .

ويذكر التاريخ قصصا مروعة عن هذا الغزو ، حيث قام «على الاكبر» بذبح كل سكان المدينة ؛ ولم ينجو من الذبح الطلاب المسلمون الذين كانوا يدرسون العلم فى « تمبوكتو » دون أن يكون لهم دخل أو علاقة مع حكام المدينة وسكانها .. وذلك بالرغم من أن « على الاكبر » نفسه كان حاكما مسلما ..

وبعد ان غزا « على الاكبر » مدينة « تمبوكتو » ودمرها على هذا النحو المؤسف ، الذى لم ينسه له المؤرخون المسلمون الذين أرخوا لافريقيا

فى تلك الفترة ، اتجه بنظره الى منطقة بعيدة فى الجنوب الغربى من « تمبوكتو » الى مدينة افريقية زاهرة هى مدينة « جينى » JENNI التى تبعد عن تمبوكتو بنحو ٥٠٠ كيلو متر

وكانت قبائل السونينك ملوك غانا قد شيدوا هذه المدينة فى القرن الثالث عشر ، وجعلوها مدينة حصينة ومركزا تجاريا نشطا ، كما انشأوا فيها العديد من المدارس وحلقات الدرس ، كما انشأوا « جامعة » لتدريس العلوم الدينية والعلوم المدنية الاخرى ، خصوصا العلوم الطبية ..

وقد بلغ عدد الطلاب الذين كانوا يدرسون العلم فى تلك الجامعة نحو الف طالب . وتدل الشواهد التاريخية على أن الاطباء الذين تخرجوا من هذه الجامعة ، كانوا يقومون بعمليات جراحية ناجحة الى جانب العلاج بالاعشاب الطبية ومركباتها ..!

وقد بلغت مدينة « جينى » قدرا من المناعة والقوة لدرجة أن ملوك امبراطورية مالى حاولوا غزوها تسعا وتسعين مرة فلم ينجحوا .. وكان « على الاكبر » على علم ودراية بتاريخ هذه المدينة القوية ، ويعرف قدرها من الناحية الدينية والناحية العلمية خير معرفة .. ومع ذلك فقد اتجه بجيوشه اليها ، محاولا أن ينجح فيما فشل فيه الملوك الاخرون ..

وفى سنة ١٤٧٣م تمكن « على الاكبر » من غزو مدينة « جينى » بعد محاولات عديدة تمثلت فى حصارها لمدة سبع سنين وسبع شهور وسبعة أيام متصلة ، الى أن فتحت المدينة أبوابها واستسلمت فى النهاية ودخلها « على الاكبر » دخول الفاتحين .

ولكن بالرغم من شهرة هذا الملك الغازى فى قيامه بالذبح والتدمير كما فعل فى «تمبوكتو » الا انه لم يمس مدينة « جينى » بسوء بعد غزوها ، بل على العكس ، فقد تزوج أم الملك الصغير الذى كان يحكم المدينة ، وعقد معه معاهدة واتفاقا على الصداقة والتقدير المتبادل .

وبعد الانتهاء من غزو مدينة « جينى » واصل « على الاكبر » غزواته لاراضى القبائل والممالك المجاورة وأخذ يضمها الى مملكة السونغاى ، وظل يواصل الغزو الى أن مات فى سنة ١٤٩٢ ، تاركا وراءه امبراطورية مستقرة مترامية الاطراف ..

وتولى عرش مملكة السونغاى أحد أبناء « على الاكبر » ولكنه كان ذا شخصية ضعيفة ، فلم يستمر حكمه أكثر من عام واحد .

وفى سنة ١٤٩٣م قام « محمد تورى » M. TOURE وهو أحد القواد العسكريين الذين كانوا يعملون فى جيش على الاكبر ، بانقلاب ضد هذا الملك الضعيف ، وجلس بدلا منه على عرش السونغاى ، وأسس اسرة حاكمة جديدة باسم « الازكيا » ASKIA

وفى عهد الازكيا « محمد تورى » بلغت مملكة السونغاى أعلى مراتب مجدها ، وفرضت سيطرتها تماما على الاراضى والاقاليم التابعة لها ، بواسطة حكومة مركزية على درجة عالية من التنظيم والقدرة على الادارة .

كما قام بتعيين قضاة مسلمين فى كل المُدن والاحياء والقرى التابعة للمملكة ، وبالتالى فقد اتخذ من الشريعة الاسلامية نظاما للحكم ومنهجا لحياة القبائل والشعوب المنضوية فى لواء المملكة الواسعة .

واستمر حكم الازكيا « محمد تورى » مدة طويلة ، حتى بلغ الثمانين من العمر ، وحينئذ قام أحد أبنائه بانقلاب ضده ، فعزل والده ونفاه الى جزيرة فى مجرى نهر النيجر .. جزيرة مهجورة لا يسكنها أحد .. الى أن استقر الحكم تماما لهذا الابن العاق بأبيه ، وعندئذ سمح للاب ان يرحل منفيا الى مدينة « جاو » بشرط أن يعيش داخل قصره لا يخرج منه ابدا ..

وفى سنة ١٥٣٨م مات الازكيا « محمد تورى » .. وكان موته كان علامة على بداية النهاية لمملكة السونغاى ..

وكان سلاطين المغاربة الذين يحكمون مراكش ويسيطرون على السواحل الشمالية لافريقيا ، يتطلعون دائما نحو الجنوب ، ولكن الصحراء الكبرى كانت حائلا ومانعا طبيعيا أخر قيامهم بغزو مناطق أواسط وغرب افريقيا جنوب الصحراء سنوات طويلة ..

وفى سنة ١٥٨٩م ، قام « المنصور » سلطان مراكش باعداد حملة عسكرية لغزو الجنوب ، وعين على رأس هذه الحملة قائدا شجاعا هو JUDAR PASHA « جودار باشا » وكان عدد الجنود والضباط الذين تكونت منهم هذه الحملة نحو أربعة آلاف ..

ولكن اختراق الصحراء يعتبر امرا صعبا حتى بالنسبة لجيش بهذا العـــدد ، ومهما كان هذا الجيش مســـلحا ومزودا بالمــؤن والامــدادات والعتاد .. وقد استغرق هذا الجيش المغربى ستة شهور حتى وصل الى مشارف مملكة السونغاى جنوب الصحراء الكبرى .. ولكن بعد أن هلك منه فى الصحراء اكثر من ثلاثة ارباعه ..

وبطبيعة الحال فان الالف جندى الذين وصلوا سالمين ، كانوا منهكين من شدة التعب ومن آثار تلك الرحلة الطويلة على ابدانهم .. ومع ذلك فقد كانوا مسلحين بالبنادق ويستعملون البارود ، مما يضمن لهم النصر المؤكد فى اية معركة ضد جيوش قبائل السونغاى التى كانت تتسلح بالســـيوف والرماح والسهام وغير ذلك من الاسلحة البدائية ..

وكما كان متوقعا ، فقد سقطت مدينة « جاو » عاصمة السونغاى بسرعة فى ايدى المغاربة .. كما سقطت ايضا مدينة « تمبوكتو » وتقــول احدى الحكايات المتوارثة بين قبائل السونغاى عن هذه الفترة :

« ان كل شىء بعد ذلك قد تغير .. وحل الخوف والخطر محل الامان والطمانينة .. كما حل الفقر محل الثراء والغنى .. وبدلا من السلام ، لم يعد هناك شىء سوى الحزن والعنف والكوارث الكبرى .. »

وقد مات « المنصور » سنة ١٦٠٣م ، وبموته دفن معه حلم المغاربة فى التحكم فى مناجم الذهب ، جنوب الصحراء الكبرى ..

اما مملكة السونغاى نفسها ، فقد تفككت وانتهت اسباب تماسكها ، فزالت بالتدريج حتى دخلت دائرة التاريخ باعتبارها آخــر واكبر الممالك والامبراطوريات الافريقية فى هذه المناطق خلال فترة العصور الوسطى ..



الفصل التاسع

مملكة أرض نوح

وجيشها الأرستقراطى



الفصـــل التاســع

من الاساطير الشائعة بين الاهالى الذين يعيشون فى المناطق المحيطة ببحيرة تشاد ، والتى يتناقلونها فيما بينهم جيلا بعد جيل ، اسطورة تقول ان المناطق المحيطة بالبحيرة هى نفسها الارض التى عاش عليها سيدنا نوح عليه السلام ..

ويبدو ان القبائل التى كانت تعيش فى تلك المناطق اثناء العصور الوسطى قد صدقت هذه الاسطورة ، لانهم اطلقوا على أراضيهم اســم « بورنوه » BORNU ومعنـــاها فى لغتهم « أرض نـــوح » .. وأطلقـــوا على اسرتهم الحاكمة اســم « الســيفووا » SEFUWA اى ابنـاء « سيف » أو « ست » الذى يعتبر لديهم أول ابن ولد لســيدنا آدم عليه الســلام ..

وعرفت هذه القبائل باسم « قبائل السو » SO .. وقد وفــدوا الى المناطق الجنوبية الغربية لبحيرة تشـــاد فى أوائــل القرن الثــامن للميلاد .. وكانوا طوال الاجسام بشكل يلفت النظر ، ولذلك فقد كان من السهل عليهم — كما يقولون — ان يهزموا « الرجال الصغار » الذين كانوا يستوطنون تلك المناطق قبلهم ، ثم استمر زحفهم حتى الشواطىء الشرقية لبحيرة تشاد واستقروا هناك .

وقد تركت قبائل « السو » على أرض تلك المنطقة آثارا مازال بعضها باقيا حتى الان ، ومازال اغلبها دفينا لم تكشف عنه الحفريات بعد .. وقد ظهرت مفاجأة تاريخية نتيجة للعثور على بقايا البيوت التى كانت تعيش فيها

تلك القبائل ، وذلك حين تبين انهم كانوا يستعملون « الطوب الاحمر » فى البناء ، وهو أمر لم يكن معروفا لدى الممالك الافريقية الاخرى التى كانت معاصرة لهم فى تلك الفترة ..

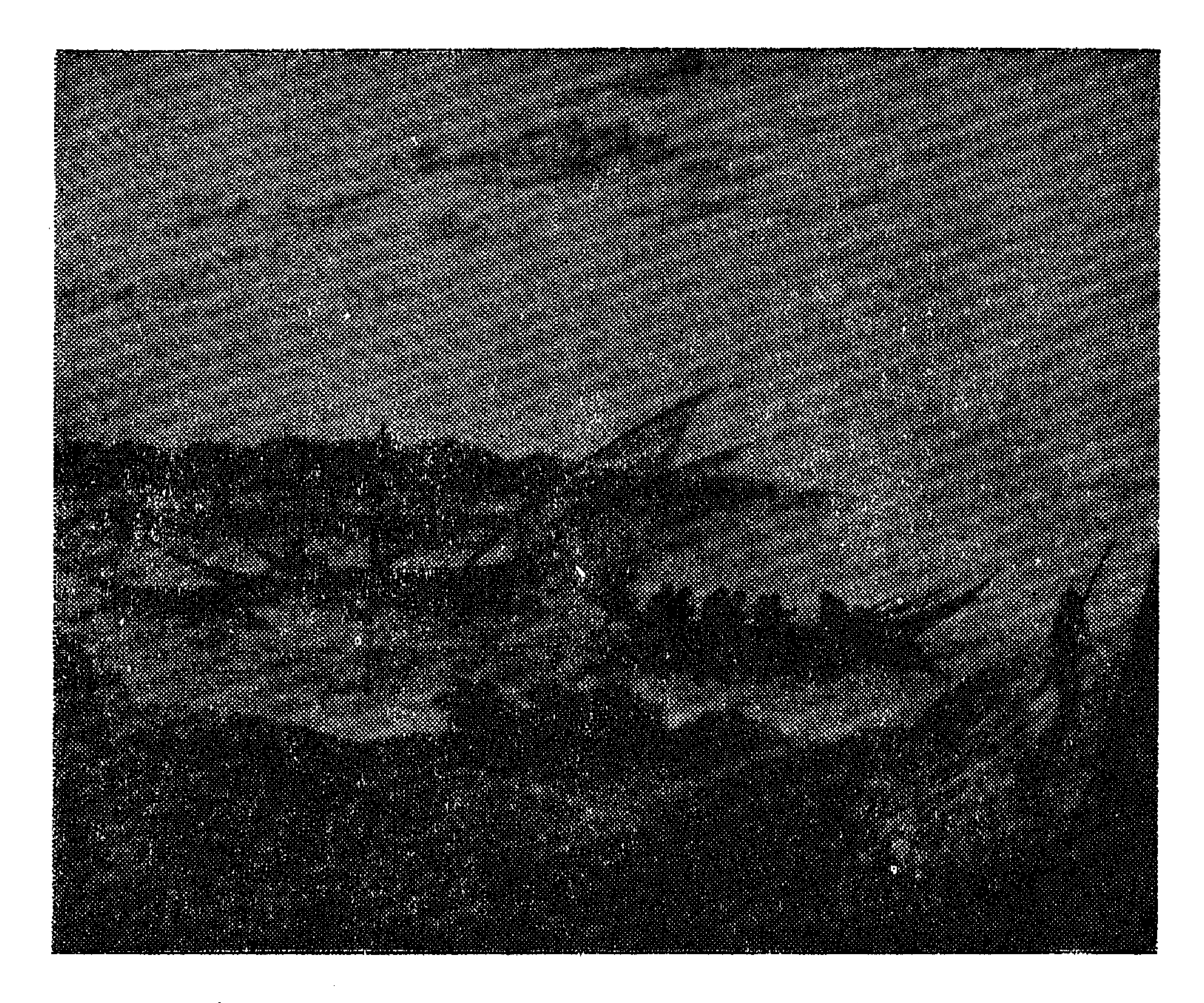
كذلك فقد عثر على الكثير من الاثار الفنية والتماثيل ذات الطابع الافريقى الكلاسيك . وبالدراسة التحليلية لبعض القطع الفنية ، تأكد أن ثقافة قبائل « السو » كانت عبارة عن تطويع افريقى لمزيج من الثقافة التى كانت سائدة بين شعوب نهر النيل ، والثقافة التى كانت سائدة بين القبائل التى كانت تعيش على شواطىء نهر النيجر ..

كانوا يصنعون أسنة رماحهم من الخزف الصلب المشطوف ، وتركوا تماثيل مصنوعة من الخزف أو من البرونز على شكل الاله المصرى القديم « امون رع » ! .. وكانوا يستعملون طريقة « صب القوالب » فى صناعة التماثيل ، وهى الطريقة التى كانت معروفة فى وادى النيل المصرى والتى انتقلت بطريقة مازالت مجهولة حتى الان الى اعماق افريقيا حتى وصلت الى منطقة « بنين » المطلة على خليج غينيا بغرب افريقيا فى هذا الزمن القديم ..

والمستقر علميا حتى الان نتيجة للدراسات والبحوث الاثرية والتاريخية ، أن قبائل « السو » أدت دور حلقة الوصل بين الحضارات الافريقية التى كانت سائدة فى شرق القارة وغربها ، فى جميع المناطق الواقعة على الحدود الجنوبية للصحراء الكبرى .

ومع ذلك فان هناك كثيرا من الغموض مازال يحيط بتاريخ تلك القبائل ، وكيفية ظهورها واختفائها بعد أن تركت هذه الاثار الحضارية المتميزة ..

وبعد اختفاء قبائل « السو » حلت بنفس المناطق التى كانوا يعيشون فيها حول بحيرة تشاد قبائل أخرى ، هى « قبائل الكانورى » KANURI وانشأوا مملكة جديدة هى مملكة « كانم — بورنوه » KANEM BORNU التى ما لبثت أن غزت أراضى القبائل المجاورة ، وضمتها الى الامبراطورية الجديدة .. ونشأت بذلك أطول امبراطورية أفريقية زمنا واستمرارا ، وأكثر هذه الامبراطوريات بهاء وبريقا وفخامة ..



صـيد السمك في نهـر « شـارى » قرب بحـيرة تشاد ..

(ونود أن نشير الى أن المؤرخين الذين بحثوا وكتبــوا ـــ ومازالوا يبحثون ويكتبون ـــ فى التاريخ الافريقى القديم ، كانوا يعتمــدون فى بعض الاحيان على القصص والحكايات والاساطير التى مازالت تتداولها القبائل المختلفة حتى الان ، والتى انتقلت اليهم نصوصها المحفوظة عن آبائهــم وأجدادهم من الاجيال التى سبقتهم ..

وبطبيعة الحال فان تنقل هذه الحكايات والاساطير « الميثولوجيا » عبر الاجيال هى الطريقة الوحيدة المناسبة لحفظ ذكريات القبائل وتراثها ، وذلك فى غيبة وجود الكتابة والتدوين ، بسبب أن معظم ـــ ان لم يكن كل ـــ لغات ولهجات هذه القبائل تعتبــر لغات منطــوقة ولا تكتب بالحــروف والكلمات ..

ومن المسلم به أن اســـتخلاص الوقائع التاريخية الثابتة من هــذه الحكايات والاساطير المتوارثة ، ليس سهلا كما قد يكون متصورا .. وانما من الضرورى تخليص هذه الحكايات والاساطير أولا مما تحفل به من خوارق وغيبيات وخرافات لايمكن تصديقها ، ثم مقارنة الاحداث الواقعية بما هو معروف بصفة مؤكدة من احداث التاريخ المكتوبة ، بالنسبة للممالك أو الدول الاخرى المعاصرة ، وبهذا يمكن القاء الضوء على الاحداث الفعلية والواقعية للتاريخ الافريقى القديم)

ومن النتائج التى القى عليها الضوء أخيرا ، حقيقية تاريخية تقول أن قبيلة « السيفووا » SEFUWA قد عينت نفسها فى القرن الثامن الميلادى حكاما وسادة على قبائل « كانمبا » KANEMBA التى كان الحكم فيها مركزيا ويتولاه مجلس قبلى يتكون من اثنى عشر عضوا ..

ومن حسن الحظ أن قبائل الكانورى مازال بعض افرادها يحفظون عن ظهر قلب التاريخ الشفهى لمملكتهم تلك ، وهو مجموعة من الحكايات المتوارثة بين الاجيال تسمى « بورنوه كرونيكال » BORNU CHRONICLE أو « تاريخ بورنوه » .. وتتضمن عرضــا للاحــداث التاريخية مسلسلة زمنيا .. وبالرغم من أن هذه الاحداث الواقعية كانت تختلط ببعض الاساطير والخرافات أو الوقائع التى لا يمكن تصديقها ، الا إننا نستطيع بسهولة أن نحدد المعالم والاحداث الهامة فى تاريخ تلك المملكة ..

ومن تحليل « تاريخ بورنوه » نعرف أن أول ملك من قبلة« السيفووا» حكم قبائل « الكانورى » وأسس مملكة « كانم» كان اسمه الملك «دوجو» DUGO وكان ذلك فى سنة ٨٠٠ م ..

أما اول ملك مسلم تولى عــرش المملكة ســنة ١٠٨٥م فهو الملك « هومى » HOME الذى ظل يواصل نشر الدعوة الاسلامية بين القبائل ، كما سار على نهجه الملوك الاخرون الذين تولوا الملك من بعده ، الى ان ساد الدين الاسلامى نهائيا فى ارجاء تلك المملكة فى بــداية القرن الثالث عشر الميلادى ..

ويمكن القول بصفة عامة انه اذا كانت امبراطورية « مالى » قد ورثت التراث الحضارى لامبراطورية « غانا » السابقة عليها ، ونشرته فى مناطق غرب الســودان وغرب أفريقيــا ، فان مملكة « كانم » هى التى نشرت الحضارة فى مناطق وسط السودان وأواسط افريقيا .. وأن هذه المملكة كانت حلقة الوصل الحضارى بين الشــعوب النبلية والشعوب الافريقية الاخرى غرب وجنوب بحيرة تشاد ، وعلى مساحة واسعة تمتد من سواحل افريقيا المطلة على المحيط الهندى شرقا ، حتى سواحل غرب القارة المطلة على المحيط الاطلنطى (خليج غينيا) .

وقد بلغت مملكة « كانــم » أقصى قوتها فى عهد الملك « ســالما » SALMA فى الفترة من سنة ١١٩٤م حتى سنة ١٢٢١م ..

وبعد موت هذا الملك القوى ، استمرت مملكة « كانم » تاريخيا لمدة مائة وخمس وستين سنة أخرى ، قضتها فى حروب مضنية تدافع فيها ضد غزوات القبائل المجاورة ، خصوصا قبائل « البولالا » BULALA التى كانت تعيش هى الاخرى فى مناطق شرق بحيرة تشاد .

وقد تسببت قبائل « البــولالا » فى كوارث جمــة ، الحقتها بمملكة « كانم » وشعبها من قبائل « الكانورى » ..

وفى سنة ١٣٨٦م ، حسم الملك « عمر » OMAR ملك « كانم » الامر ، ورحل بشعبه كله من منطقة شرق البحيرة واتجه الى شواطئها الغربية ، حيث اسس هناك مملكة جديدة هى ما تسمى مملكة «بورنو الجديدة» التى تميزت بأنها كانت أكثر الممالك بريقا وأبهة ، بين الممالك والامبراطوريات الافريقية التى ظهرت فى العصور الوسطى ..

● ● ●

وكان نظام الحكم فى مملكة « بورنوه الجديدة » مماثلا تماما لنظام الحكم الذى كان سائدا فى مملكة « كانم » .. فالملك أو « المـاى » MAI يعامل من شعبه على أساس أنه اله ، ولا يمكن ان يتجرأ اتباعه على النظر اليه ، وذلك رغم أن الدين الرسمى للمملكة هو الاسلام ، كما أن الشريعة الاسلامية هى القانون الذى يحكم الناس وشئون المملكة ..

وفى سنة ١٤٧٦ م تولى الملك على ، أو « الماى على » عرش بورنوه ، واستمر حكمه نحو احدى وعشرين سنة ، أنشأ خلالها عاصمة جديدة للمملكة وهى مدينة « بيرنى جازارجومو » BERNI GAZARGOMO وكانت مدينة بديعة محاطة بالاسوار من كل جانب وتقع فى المنطقة الشمالية للمملكة على ضفاف نهر « طوبى » TOBE الذى يعتبر حاليا ضمن الحدود السياسية التى تفصل بين دولتى النيجر ونيجيريا .. واعتبرت هذه المدينة من اكبر المدن الافريقية التى أنشئت فى فترة العصور الوسطى . ومازالت بها حتى الان الاثار الباقية من قصر « الماى على » الذى كان مبنيا بالطوب الاحمر ..

غير ان اشهر واقوى الملوك « المايات » فى تاريخ بورنوه ، هو « الماى ادريس علومه » IDRIS ALCOMA الذى أسس أرقى جيش ظهر فى الممالك والامبراطوريات الافريقية .. ولم يكن لهذا الجيش مثيل بين كل الجيوش الافريقية ، اذ يعتبر أول جيش أفريقى يعتمد فى تسليحه على « النار والبارود » فى حين كانت كل الجيوش الاخرى تستعمل الاسلحة الافريقية التقليدية كالسهام والرماح والحراب ..

وكان الجنود والفرسان فى هذا الجيش يلبسون — مثل فرسان العصور الوسطى فى أوربا — الخوذات الحديدية ، ويتدرعون بالمزرودة CHAIN MAIL وهى أردية مرنة مصنوعة من الحلقات الحديدية المضفرة ، كما أن الخيول بدورها كانت مدرعة بأغطية ثقيلة لحمايتها اثناء المعارك ..

أما ثروة مملكة « بورنوه » فكانت فى الغالب نتيجة لقيامها بتجارة وتصدير العبيد الذين كانوا يقعون فى اسر هذا الجيش القوى ..

وقد مات « الماى ادريس علومه » سنة ١٦١٧م ، وبدأت القلاقل والمتاعب تهب على مملكة بورنوه ، كما بدأ التفكك يدب فى أوصالها ، حين اخذ كل امير فى الاستقلال عن الامراء الاخرين حتى جاءت بداية القرن الثامن عشر الميلادى ، وكان الضوء قد خبا تماما عن تلك الحضارة الكبرى التى سادت فى تلك المنطقة الافريقية لفترة زمنية استمرت نحو الف سنة ..

الفصل العاشر

أمبراطورية بنين
وممالك الغابات الاستوائية



الفصل العاشر

« مقبرة الرجل الأبيض » .. !

كان هذا هو الاسم الذى اطلقه المستعمرون الانجليز فى خلال القرن التاسع عشر ، على مناطق المستنقعات والغابات الاستوائية المطرة فى غرب افريقيا ، باعتبارها مناطق لا يمكن اختراقها ..

ولكن هناك من الشواهد ما يدل على أن بعض الاوربيين قد وصلوا الى بعض هذه المناطق قبل القرن التاسع عشر ، كذلك فقد تمكن التجار العرب باستمرار من الوصول الى مناطق حزام الغابات الاستوائية فى سواحل غرب افريقيا ..

ومن المؤكد أن تاريخ الممالك التى نشأت فى مناطق الغابات الاستوائية الافريقية ، يختلف كثيرا عن تاريخ الممالك والامبرآطوريات التى ظهرت فى المنآطق العشبية جنوب الصحراء الكبرى

كذلك فان سكان مناطق الغابات الاستوائية الافريقية يختلفون جسميا وثقافيا عن اخوانهم الافريقيين الاخرين الذين يعيشون فى شمال وجنوب مناطق الغابات .

ورغم أن كتاب العرب من مؤرخين وجغرافيين قد ذكرو الكثير عن الاراضى والشعوب والقبائل التى تعيش فى المنطقة العشبية جنوب الصحراء الكبرى ، الا انهم لم يذكروا شيئا عن إراضى وقبائل منطقة الغابات الاستوائية ، اللهم الا بعض المعلومات التى قد لا ترقى كثيرا الى اليقين ..

ولذلك فان الكثير من الاوربيين كانوا يعتقدون الى زمن قريب ، بأن القبائل والشعوب التى تعيش على سواحل خليج غينيا ، وفى داخل الغابات الاستوائية ليس لهم تاريخ معروف ..

ولكن تبين خطأ هذا الاعتقاد الان ، بعد اكتشاف الكثير من الشواهد التاريخية التى تدل على أن هذه الشعوب كان لها تاريخ سياسى متميز ، وكانت لهم حضاراتهم وثقافاتهم المتميزة ذات الطابـــع الخاص .. وذلك بالرغم من أن الوصول الى معرفة تلك الشواهد يعتمد اساسا على دراسة « الاثار » التى عثر عليها فى الحفريات ، كما يعتمـــد على تحليل القصص والحكايات والاساطير التى تتوارثها الاجيال المتعاقبة ، والتى مازالت تحكى شفاهة حتى الان ..

بدأ حل لغز هذه الحضارات واستجلاء غموضها فى سنة ١٩٣٦ ، حين عثر المعدنون الذين يحفرون مناجم الصفيح فى أواسط نيجيريا ، وبطريق الصدفة المحضة ، على تمثالين للرأس مصنوعين من الصلصال الاحمر .. وكان هـــذا الاكتشــــــاف فى منطقـــة « جـــابا » JAPPA المجاورة لقرية « نوك » NOK

فى ذلك الوقت لم يكن هناك أحد يتصور أن هذين التمثالين يرجعان الى تاريخ قديم جدا .. أو انهما دليل ومؤشر لوجود قبائـــل وشـــعوب متحضرة كانت تعيش فى تلك المناطق منذ آلاف الســـنين ، وكان بينهـــم فنانون ونحاتون يصنعون مثل هذه التماثيل المتقنة ..

ثم عثر بعد ذلك على المزيد من التماثيل الصلصالية الحمراء فى مناطق اخـــرى فى نيجيريا ، كما عثـــر على تماثيل اخـــرى من البرونز .. وتبين بالتحليل العلمى لهذه التماثيل ، ان تاريخ صنعها يرجع الى فترات زمنيـــة تبدأ من القرن التاسع قبل الميلاد حتى بداية القرن الثالث بعد الميلاد . كما تبين ان طريقة صنع هذه التماثيل والاثار الاخرى التى عثر عليها ، تدل على أنها نتاج فن متميز وله طابعه الخاص ، لحضارة متميزة كانت منتشرة بين قبائل « النوك » NOK التى كانت تعيش فى مساحة على امتـــداد حوالى خمسمائة كيلو متر من أراضى نيجيريا ..

فمن هم ياترى قبائل « النوك » هذه التى ظلت تعيش فى هضـــبة نيجيريا قرابة الفين من السنين .. وهـــل هم اجـــداد قبائل « اليوروبا » YORUBA التى تعيش الان فى دولة نيجيريا الحديثة .. ؟!



رأس تمثال من الخزف ..
من نحت قبائل النوك القديمة

ليست هنـــاك اجابة محـــددة على هذا السؤال .. لان هناك حلقة مفقودة فى هذا التاريخ تمتد نحو خمسمائة عام ..

ويقول العلماء المتخصصون فى دراسة اللغات واللهجات الافريقية ، ان لغة قبائل « اليوروبا » ترجع فى اصولها الصوتية الى « لغة أم » كانت موجودة وسائدة بينهم منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة ..

ولكن هذا الرأى لا يتوافق مع القصص والحكايات المتداولة بين اجيال قبائل اليوروبا حتى الان ، فهم يقولون أن فى الحكايات التى ذكرها بعض التجار العرب الذين تقابلوا مع اجداد هذه القبائل اثناء العصور الوسطى أن « ابناء مملكة كوش » قد هجروا أرضهم ورحلوا الى « حيث تغـــرب الشمس » ولذلك فهم ينتمون الى شعب « كوش » القديم الذين هاجروا الى الجنوب والى الغرب ..

وهناك حكاية أخرى تقول أن « اليوروبا » جاءوا الى نيجيريا راحلين من سواحل البحر الابيض المتوسط ليستقروا فى اعماق جنوب الصـــحراء الكبرى ..

وأيا كان الرأى حول النزاع على اصـــل قبائل « اليوروبا » فان من المؤكد تاريخيا انهم كانوا مستقرين فى مناطق واسعة فى غرب نيجيريا فى خلال القرن الثامن الميلادى ، وأسسوا عاصمتهم فى مدينة « ايفى » IFE

وكانت « ايفى » عاصمة دينية وثقافية لجميع قبائل « اليوروبا » التى كانت تعيش متحدة مع بعضها فى بعض الاحيان ، أو مستقلة ومنفصلة عن بعضها فى أحيان أخرى ..

وقد وصل الفنانون والنحاتون فى تلك المدينة الى درجة راقية من فن النحت ، واستعملوا الطريقة المعتادة لصب التماثيل التى ظهرت وسادت فى شمال وادى النيل منذ آلاف السنين ، والتى لا يعلم احد حتى الان كيف وصلت اليهم ، كماقاموا بتطوير الطريقة الاكثر بدائية لنحت وتصميم التماثيل التى كانت سائدة بين قبائل « النوك » القديمة .

وهناك العديد من التماثيل والتحف الاثرية التى عثر عليها فى مدينة « ايفى » معروضة الان فى متاحف الاثار فى كثير من دول العالم المتحضرة .. وتعتبر هذه التحف والتماثيل الافريقية القديمة على درجة من الرقة وجمال

الصنع بحيث يمكن مقارنتها باعظم الاعمال الفنية والتماثيل المصنوعة من النحاس أو من البرونز المصبوب فى القوالب ، أو المصنوعة من الصلصال الاحمر المحروق ..

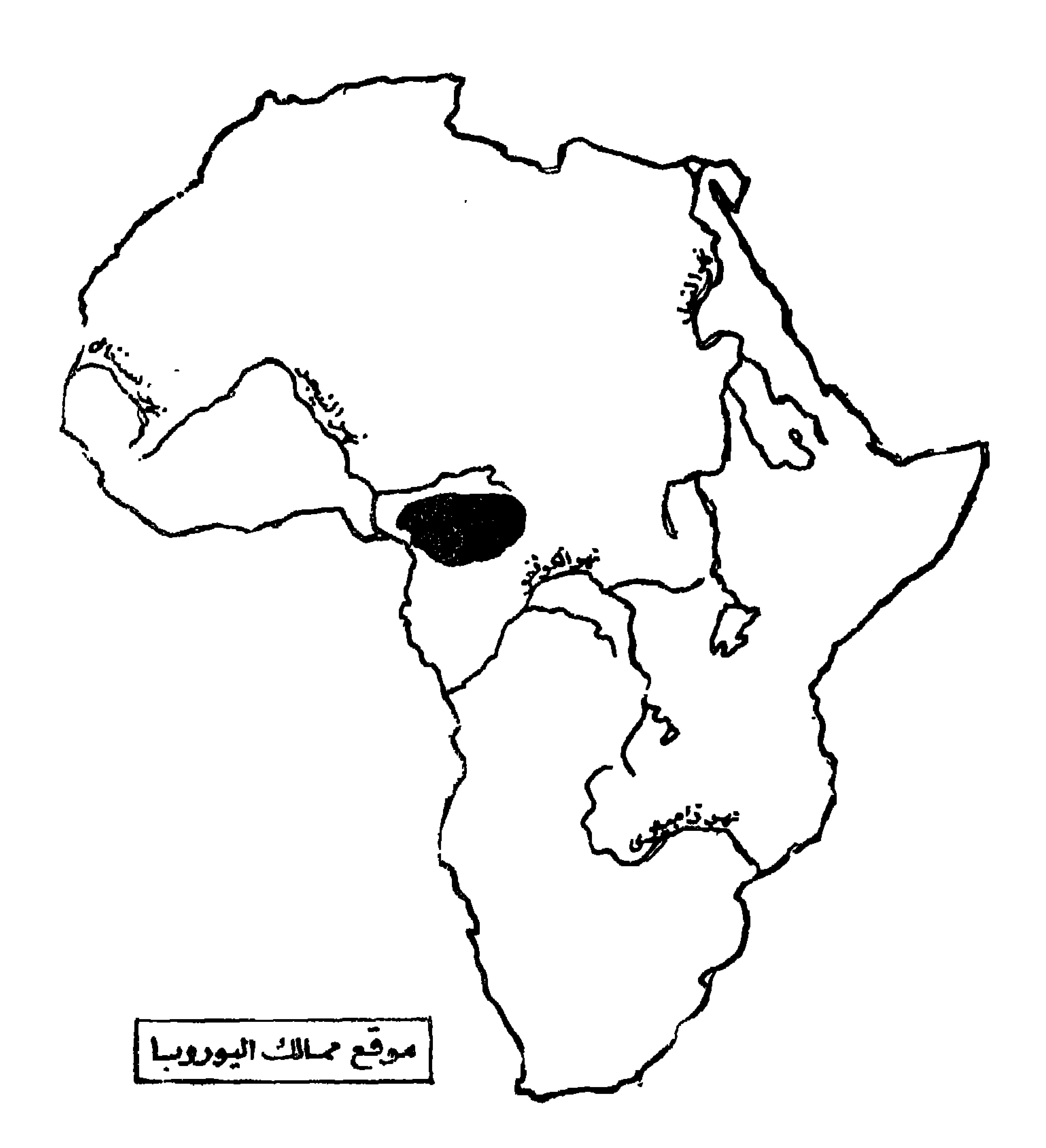
• • •

وقد كان انتشار قبائل « اليوروبا » فى بطاح شاسعة من الارض من اهم العوامل التى فككتهم الى ممالك أو ولايات مستقلة .. وكانت أقوى هذه الولايات « اليوروبية » هى ولاية « أويو » OYO التى اتخذت مدينة « ايفى » — التى تقع على الحدود الشمالية لاراضى الغابات الاستوائية المطرة — عاصمة لها ، وكان ذلك فى بداية القرن الحادى عشر الميلادى..

وظلت ولاية « أويو » أقوى ولايات « اليوروبا » كما ظلت عاصمتها « ايفى » عاصمة روحية لجميع القبائل اليوروبية لمدة طويلة ، حتى قامت بغزوها قبائل « الايدو » EDO التى كانت تعيش فى « بنين » جنوب ولاية « أويو » ..

وتقول الحكايات أن « شعب بنين » — قبائل الايدو — يشارك قبائل اليوروبا فى تاريخها .. وان قبائل « الايدو » هم احفاد الامير « أودو دو وا» ODODUWA الذى ارشد أبناء كوش حينما هاجروا الى « المناطق التى تغرب فيها الشمس » .. وأنهم استقروا فى مدينة « ايفى » فى الفترة من القرن السادس حتى القرن الثامن الميلاديين . وكانت اقامتهم قصيرة لانهم رحلوا بعد ذلك الى مناطق اخرى فى الجنوب .. حيث استوطنوا دلتا نهر النيجر المطلة على خليج غينيا .. وهناك أسسوا مملكة « بنين » . وتولت الحكم اسرة مالكة ، كان يطلق لقب « أوجيزو » OGISO أى الملك — على كل من كان يتولى العرش ..

وقد توسعت هذه المملكة فى مناطق الغابات المحيطة ، وضمتها الى سيطرتها .. وكان نظام الحكم يتميز باستقرار الامن والسلام فى أرجاء المملكة ، حتى سنة ١١٤٠م ، حين ارتكب الاوجيزو — أى الملك — « أوودو » OWODO خطأجسيما وعملا يتسم بالظلم ، فقد حكم باعدام أمرأة حبلى ، الامر الذى ثارت عليه القبائل ، واجبرت الملك على التنازل عن العرش ، بل وأبعدته منفيا من البلاد ..



موقع ممالك اليوروبا

ويبدو أن نجاح شعب « بنين » فى ابعاد الملك عن الحكم ، قد أكد لديهم حقهم فى مراجعة الحاكم ، وحقهم فى ابداء رأيهم فى نظام الحكم .. وظهرت بذلك أول « نزعة جمهورية » فى تاريخ ممالك وامبراطوريات أفريقيا السوداء ، فقد اعلن شعب بنين انهاء « الملكية » وبداية « الجمهورية » حيث يقوم الشعب باختيار حاكمه ..

وقد تم اختيار « افيان » EVIAN وهو شخص ليس من الاسرة المالكة ليكون أول حاكم « جمهورى » لشعب بنين . وكان « افيان » يعمل فى احدى الوظائف العليا فى عهد الملك السابق « أوودو » ، وقد اثبت كفاءته ورجاحة عقله وحسن ادارته وتصريفه للامور .. لذلك فقد تم اختياره بالاجماع ، وعين رئيسا لاول «جمهورية » فى أفريقيا السوداء .

وقد استمر حكم « افيان » حوالى ثلاثين عاما .. وعندما احس أنه قد كبر فى السن ، واصبح عاجزا عن القيام بأعباء الحكم ، قام «بتعيين » ابنه ليخلفه فى كرسى الحكم ، ولكن شعب بنين لم يقبل هذا التعيين ، واصر على أن من حق الشعب وحده اختيار الحاكم ..

ونتيجة لهذا التصادم والاختلاف الديموقراطى حول نظام الحكم ، انتصر رأى فريق من شعب بنين كان يرى أن يقوم الشعب بالاتصال « بالاونى » ONI — أى بملك قبائل اليوروبا — لكى يرسل احد الامراء من أبنائه لكى يحكم بنين ويصبح ملكا عليها .

وبالفعل ارسل « الاونى » ابنه الامير « أورانميان » ORANMIYAN الذى استقبله شعب بنين خير استقبال ، وتوجوه « أوبا » OBA أى ملكا على البلاد .. وكان ذلك فى عام ١١٧٠م .

وهكذا قامت اسرة حاكمة جديدة ، استمرت فى حكم بنين منذ هذا التاريخ حتى سنة ١٨٨٨م — أى نحو أكثر من سبعمائة سنة — وكان يطلق على كل من يتولى العرش لقب « أوبا » .. أى الملك .. !

وفى عهد « الاوبا أورانميان » انتعشت امبراطورية بنين واتسعت أراضيها ، واستمر حكمه نحو ثلاثين عاما .. الى ان أعلن « الاوبا » فجأة، أنه ضاق بالحكم ، وأن شعب بنين شعب يغيظ حكامه !!

وهجر « الاوبا » عرشه ، بعد ان اعلن نبوءة تقول أن من يصلح لاعتلاء عرش بنين لابد أن يكون شابا قويا ، وفنانا فى نفس الوقت ، ولابد أن يكون مولودا فى بنين ، وتعلم فيها ، وعرف خبايا اسرارها وفنونها .. !

وقد انطبقت الاوصاف التى ذكرتها هذه النبوءة على أحد ابناء « أورانميان » وكان اسمه « أويكاد الاول » EWEKA THE FIRST وعندما تولى هذا الابن عرش بنين بدأ عهدا جديدا وأعلن « امبراطورية بنين » ..

استقر نظام الحكم ، بعد ان اصبح مماثلا تماما وصورة طبق الاصل لنظام الحكم السائد فى مملكة اليوروبا .. والفارق الوحيد أن الملك الذى يتولى عرش اليوروبا يطلق عليه لقب « أونى » .. أما الملك الذى يتولى عرش بنين فيطلق عليه لقب « أوبا » ..

ثم اتسعت رقعة مملكة بنين نتيجة لقيامها بغزو مناطق الغابات المحيطة وضمتها تحت لوائها .. وفى خلال القرن الثالث عشر الميلادى ، كانت امبراطورية بنين مازالت تتطلع الى غزو المزيد من هذه المناطق ..

● ● ●

وفى الفترة من عام ١٢٨٠ م حتى عام ١٢٩٥ م ، تولى حكم بنين « أوبا » أو ملك يسمى « أوجولا » OGUOLA وفى عهده اكتسبت بنين طابعا مميزا جديدا لفن النحت وصناعة التماثيل من النحاس والبرونز ..

قام « الاوبا أوجولا » بارسال رسالة الى « أونى » اليوروبا الذى يعيش فى مدينة « ايفى » يطلب منه فيها أن يختار أحد صناع النحاس المهرة ، ليعلم الفنانين بمملكة بنين كيفية التعامل مع هذا المعدن ، من صهر واستخلاص وسبك وتشكيل ..

وتلبية لهذا الطلب ، أوفد « الاونى » أحد الفنانين الكبار المتخصصين فى « النحاس » .. وكان اسم هذا الفنان « ايجوجا » IGUEGHA حيث قام بتعليم وتدريب فنانى بنين على كيفية التعامل مع النحاس ، الذى كان يتوفر بكميات كبيرة جدا فى كثير من المناجم الدفينة فى الاراضى التىتسيطر عليها المملكة ، والذى كان أيضا من أهم المؤثرات فى تاريخ هذه المملكة ..

وقد لعب النحاس دورا هائلا فى الحياة الاقتصادية والحياة الفنية لمملكة بنين :



« عودة الصائد منتصرا » .. تمثـــال من البرونز من آثـــار مدينـــة « ايفى » .

أما الدور الاقتصادى فيتلخص فى أن معدن النحاس الاصفر BRASS وهو الذى كان يتوفر فى بنين بكميات هائلة — كان سببا مباشرا فى ازدياد اعتماد المملكة على عمليات التجارة الخارجية مع غيرها من الممالك الافريقية المجاورة والبعيدة ..

كانت بنين تصدر النحاس الاصفر ، وتستورد النحاس الاحمر وهو معدن أساسى فى صناعة البرونز والنحاس بصفة عامة .. وقد أزدهرت هذه التجارة الخارجية لدرجة أن بنين قد تعاملت فى هذا المجال مع الممالك والقبائل التى كانت تعيش فى غرب السودان ..

وأما الدور الفنى والحضارى الذى اداه معدن النحاس لمملكة بنين ، فيتلخص بدوره فى البراعة الفائقة ، والجدارة التى اثبتها الفنانون والصناع فى التعامل مع هذا المعدن ، فجميع التماثيل والاعمال الفنية والاثرية التى عثر عليها فى المناطق التى كانت تابعة لمملكة بنين تدل على المستوى الراقى لفن النحت والصياغة الذى وصلت اليه هذه المملكة اثناء فترة العصور الوسطى .

* * *

لقد صمم هؤلاء الفنانين تماثيل من النحاس والبرونز تمثل كل أوجه ومناحى الحياة فى مملكة بنين .. وكأنهم بهذا كانوا يقصدون أن يتركوا للاجيال المقبلة تاريخا منحوتا فى عشرات ومئات الاشكال من هذه التماثيل ، وذلك بدلا من ترك تاريخ مكتوب ، وعذرهم فى ذلك أنهم كانوا لا يعرفون الكتابة ، لان لغتهم كانت بدون ابجدية يعتمد عليها فى الكتابة والتدوين ..

وفى منتصف القرن السادس عشر ، كانت مملكة بنين تسيطر على مناطق واسعة تمتد من دلتا نهر النيجر ، حتى منطقة مدينة « لاجوس » الحديثة .. ولسوء الحظ كانت هذه المنطقة احدى المناطق الرئيسية التى هبط فيها المستعمرون الاوربيون الذين يبحثون عن مناطق لاقتناص «العبيد».

ولسوء حظ بنين ايضا أن اتفقت مع أوائل البرتغاليين الذين جاءوا الى غرب افريقيا ليمارسوا اخس تجارة فى تاريخ الانسان ، وهى تجارة العبيد ..

قام البرتغاليون بتزويد شعب بنين بالبنادق والاسلحة النارية ، وطلبوا منهم الانطلاق الى مناطق الغابات والمناطق الريفية الداخلية ، لمحاصرة الاهالى واصطيادهم احياء ، وسوقهم الى ساحل خليج غينيا ليباعوا هناك

بالجملة ، وليتم تصديرهم الى البرتغال حيث يباعوا هناك من جديد بالجملة وبالقطاعى ..

وبالفعل انطلقت جيوش بنين المزودة بالاسلحة النارية الى المناطق الداخلية وأسرت الالاف .. ولكن الاهالى الذين فزعوا من اثر هذه الاسلحة النارية التى لا قبل لهم بمواجهتها ، اضطروا للهرب والفرار مذعورين الى مناطق أكثر تغلغلا فى الغابات والاحراش ، وأكثر أمنا وبعدا عن مصدر هذه الغارات اللا انسانية (*).

وفى بداية القرن الثامن عشر تقريبا ، أصبحت مساحات واسعة فى منطقة جنوب نيجيريا خالية تماما من الناس .. ولذلك فقد بدأت قدرة مملكة بنين على الاستمرار فى تجارة العبيد فى الاضمحلال .. واضمحلت بالتالى شئون هذه المملكة التى وصمها التاريخ الافريقى بعار الاشتراك مع الاوربيين فى تجارة العبيد .. واحتفظت ذاكرة التاريخ بهذه الوصمة المشينة ، حيث تشير بعض القصص والحكايات المتوارثة الى مملكة بنين باعتبارها « مملكة الدماء » .. !

● ● ●

كان ظهور قبائل « الاشانتى » ASHANTI فى مناطق الغابات الاستوائية المطرة معاصرا على وجه التقريب لظهور شعب بنين فى هذه المناطق بغرب القارة .. وكان ذلك فى بداية القرن الخامس الميلادى ..

فى ذلك الزمن القديم استقرت مجموعة من قبائل « الاكان » AKAN المتحدثة بلغة « التوى » TWI فى مناطق الغابات الاستوائية بغرب أفريقيا ، وقد جاءت هذه القبائل — كما يذكرون فى حكاياتهم المتوارثة — مهاجرة من « الصحراء البيضاء الكبرى » .. ثم استقر مقامهم فى مناطق الغابات الواسعة فى شكل جماعات أو ولايات منفصلة ، لا يربطها أى رابط أو اتحاد ، عدا العلاقات الروحية التى توجد عادة لدى القبائل المنتمية الى اصل واحد (*).

وكان عدد هذه الولايات يربو على اثنتى عشرة ولاية ، ولم تكن كلها على قدر متساو من القوة ، بل ظهرت ولاية واحدة هى « الاشانتى » التى اعتبرت أقوى الولايات التى كونتها قبائل « الاكان » . وسرعان ما أصبحت « كومساى » KUMSAI عاصمة الاشانتى ، عاصمة روحية لجميع قبائل « الاكان » ..



موقع مملكة الأشانتي



تمثال من البرونز لفارس فى جيش « بنين » يرجع تاريخ
نحتــه الى القـــرن السادس عشر .

وفى خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين ، تعرضت ولايات قبائل الاكان لغزوات مستمرة من القبائل الاخرى المعادية التى تعيش فى المناطق المجاورة .. وكانت قبائل « الاكان » بطبيعتها مسالمة ، ولكن اثر هذه الغزوات دفع الاكان الى التطلع الى امل الاتحاد ، واصبح هذا الامل هو أقصى ما تتطلع اليه قبائل « الاكان » لتتمكن من مواجهة الاعداء وصد هجماتهم ووقف مظالمهم ..

وفى أواخر القرن السابع عشر تحقق هذا الامل على يد « أوزاى توتو» OSEI TUTU ملك « كومساى » الذى نجح فى جمع رؤساء قبائل الاكان كلهم فى مجلس واحد ، ودعاهم الى ضرورة الاتحاد فى أمة ودولة واحدة تضمهم جميعا فى وطن واحد وتحت حكومة مركزية واحدة .

وتقول الحكايات المتوارثة أنه فى نفس اللحظة التى كان « أوزاىتوتو» يخطب فيها فى مجلس شيوخ القبائل والولايات ليقنعهم بالميزات التى تعود على جميع قبائل الاكان اذا توحدوا فى دولة واحدة ، هبط من السماء كرسى عرش مصنوع من الذهب الخالص .. وكانت هذه دلالة وعلامة سماوية على قيام مملكة جديدة هى « مملكة الاشانتى » وعلى رأسها ملك جديد هو « أوزاى توتو » ..

ولم تمض سنوات قليلة حتى أصبحت « مملكة الاشانتى » أقوى مملكة فى مناطق الغابات الاستوائية بغرب أفريقيا ، وقد تمثلت قوتها فى كميات الذهب التى تمتلكها والتى تخبئها وتخفيها داخل اماكن سرية مجهولة فى عمق الغابات ، كذلك فى قيامها بالمقايضات والمبادلات التجارية مع قبائل غرب السودان ..

وبدأت مملكة الاشانتى فى غزو الاراضى المجاورة وراء حدودها الغربيه كما اقامت علاقات تجارية مع القبائل الاخرى التى تعيش على سواحل خليج غينيا .. وكانت هذه القبائل تتولى أعمال الوساطة التجارية بين مملكة الاشانتى وبين التجار الاوربيين الذين ينزلون بسواحل غرب افريقيا المطلة على خليج غينيا ..

وعندما ازدادت قوة الاشانتى ، رتبت امرها على استبعاد القبائل الوسطاء والتعامل مباشرة مع التجار الاوربيين .. وكان من الضرورى لكى يتحقق هذا الغرض ان يتم القضاء تماما على هذه القبائل والاستيلاء على أراضيها المطلة على المحيط .

وقام جيش مملكة الاشـــانتى بغزو القبائـــل التى تعيش بالاراضى الساحلية ، وارتكب ضدهم مذابح جماعية وحشية تقشعر لها الابـــدان ، واستحق بذلك الوصف الذى تطلقه عليه الحكايات المتوارثة ، باعتباره اكثر جيوش غرب افريقيا توحشا وتعطشا للدماء ..

وقد استمرت هذه السمعة السيئة للاشانتى نحو مائتى عام أو يزيد .

وفى خلال القرن التاســع عشر ، ناضلت « الاشانتى » بقوة ضـــد المستعمرين الانجليز ، وسببت لهم الكثير من المتاعب باستمرار مقاومتهم لسنوات طويلة واخيرا فى بداية القرن العشرين ، وبالتحديد سنة ١٩٠٢م ، تمت هزيمة قبائل الاشـــانتى ، وخضـــعت مملكتهم للانجليز ، واصـــبحت أراضيهم « محميـــة » PROTECTORATE بريطانية ، تدخل ضمن مستعمرة « ساحل الذهب » GOLD COAST التى ظلت تحت سيطرة الاستعمار البريطانى حتى سنة ١٩٦٥ ..

● ● ●

منذ بدأت تجارة العبيد فى أفريقيا ، وكانت تزداد حدة ووحشـــــية ولا انسانية ، وقد اثرت تلك التجارة تأثيرات مختلفة ومتباينة على جميـــع الممالك والامبراطوريات التى ظهرت فى مناطق غرب افريقيا ، كما أثرت كذلك على جميـــع الولايـــات الصغيرة والمشيخـــات القبائلية التى كانت تستوطن تلك المناطق ، دون أن تكون فى شكل دولة ذات حكومة مركزية .

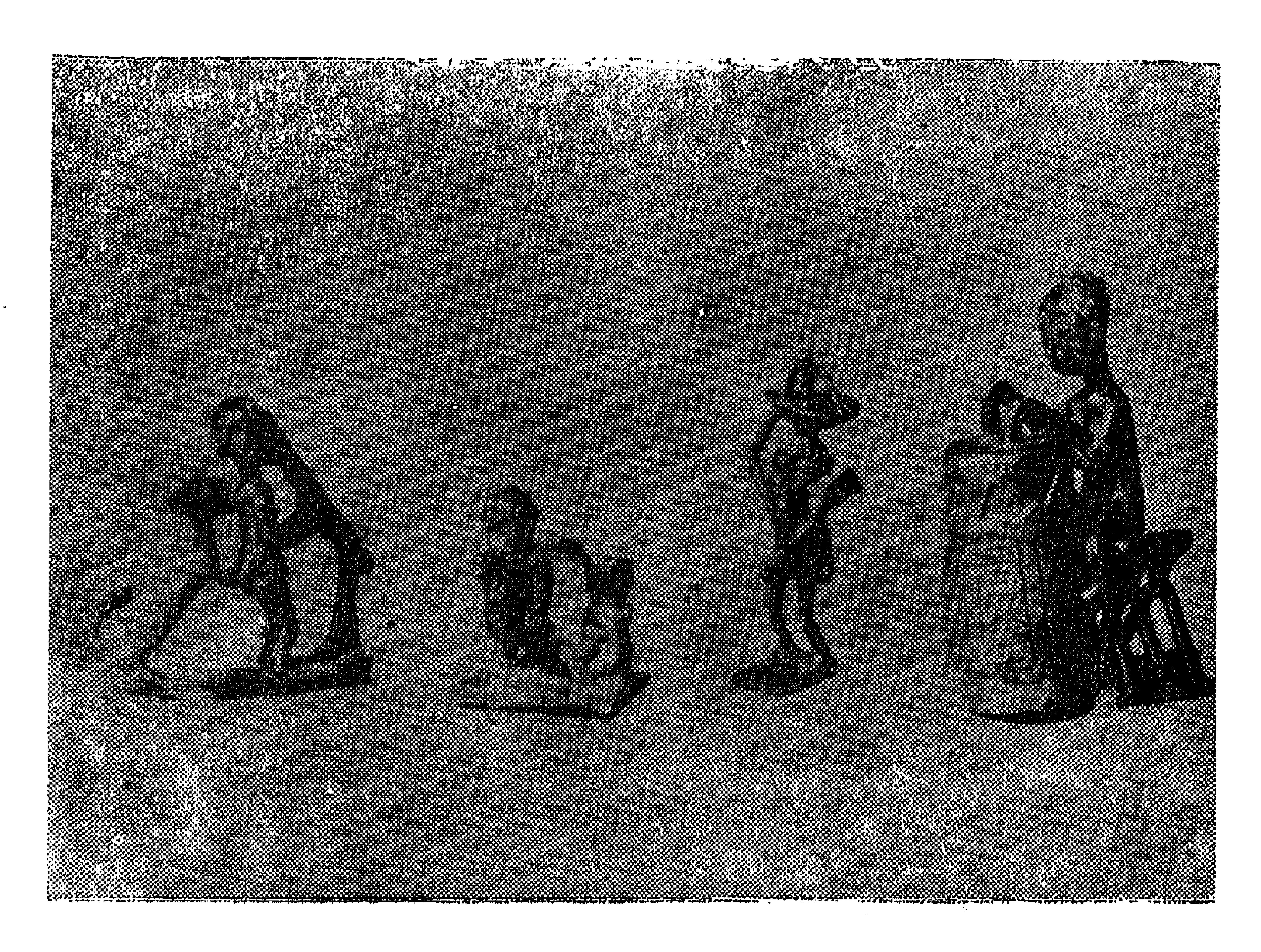
فالدول والممالك والامبراطوريات القوية استطاعت ان تحقق ثـــراء واسعا من تجارة العبيد ، بينما عانت الممالك والولايات الصغيرة منهذه التجارة اشد عناء ، فقد تعرضت للغزو والهجمات المستمرة ، وتم أســـر قبائل باكملها ، ورحلوا مكبلين الى السواحل ، ليباعوا عبيدا لمن يشترى من التجار الاوربيين الذين كانوا يكدسونهم فى السفن ليشحنوا الى دول أوربا والى العالم الجديد فى الامريكتين ..

وبسبب الاثار التى جرتها تجارة العبيد على هذه المناطق فى غرب أفريقيا، ظهرت مملكة جديدة هى مملكة « بوشونجو » BUSHONGO

وتبدأ قصة ظهور هذه المملكة فى عام ١٤٨٣م ، حين تغلغل البرتغاليون داخل مناطق غرب أفريقيا ، ووصلوا حتى نهر « الكونغو » CONGO وانشأوا علاقات تجارية مع مملكة « الكونغو » . وبطبيعة الحال ، فقـــد كانت معظم الصفقات عن توريد العبيد ..



تمثال للنمر من البرونز .. من نحت فناني بنين في
القـرن السادس عشر .



تماثيل صغيرة من النحاس كانت تستعملها قبـائل
الأشانتى كسنجات لموازيـن الذهب ٠

وفى المنطقة المجاورة لمملكة الكونغو ، كانت تعيش قبائل « الكوبا » KUBA وهى قبائل مسالمة الى حد كبير ، وليست على استعداد لخوض معارك المقاومة ضد قناصى العبيد من جيوش مملكة الكونغو . ودرءا لهذا الخطر ، قامت قبائل « الكوبا » بالهجرة من أراضيها ورحلت هاربة الى مناطق جديدة داخل قلب افريقيا ، فى اتجاه الجنوب الشرقى ، واستقروا فى منطقة منعزلة على ضفاف نهر « كوانجو » KWANGO

ولكن أخطار الغزو والقنص ، هددت حياتهم أيضا فى تلك المنطقة الجديدة حيث تعرضت قبائل « الكوبا » الى هجمات متلاحقة من القبائل الاقوى التى كانت تعيش فى المناطق المجاورة لنهر « كوانجو » ولم يكن هناك حل أمام قبائل « الكوبا » الا ان تشد الرحال مهاجرة مرة أخرى نحو الشرق ، الى أن وصلت الى قلب الكونغو ، فى المنطقة الوسطى لمجرى نهر « كاساى » KASSAI

وفى هذه المنطقة النائية استطاعت قبائل « الكوبا » فى النهاية أن تجد أرضا آمنة تستقر فيها . وبعد أن التقطوا أنفاسهم بعد تعب الترحال والهجرة ونظموا انفسهم وتوحدت مصالح جميع العشائر ، واسسوا مملكة « بوشونجو » وهو الاسم الذى كان يطلق على أكبر واقوى عشيرة من العشائر التى تنضوى فى لواء قبائل « الكوبا » ..

ونظرا لانعزال وبعد أراضى مملكة « بوشونجو » فقد انعزلت قبائل « الكوبا » عن التأثيرات الخارجية الوافدة الى أفريقيا من قارتى آسيا وأوربا .. وبالتالى فقد أصبحت لهذه القبائل ثقافة عامة متميزة ، كما كانت تعيش حياتها طبقا للعادات والافكار التى ورثوها عن أجيالهم السابقة ، وأورثوها بدورهم الى الاجيال اللاحقة .

وفى بدايات القرن السابع عشر ، شعرت احدى عشائر قبائل « الكوبا » بانها قد أصبحت قوية وتستطيع أن تستولى على عرش المملكة . وبالفعل فقد قامت هذه العشيرة بقيادة « شامبا بولو نجونجو » SHAMBA BOLONGONGO بالهجوم على الاسرة الحاكمة ، وتم قتل الملك ، وجلس « شامبا بولو نجونجو » على عرش المملكة .

وبالرغم من ان هذا الملك قد استولى على العرش بالقوة وبالقتل ، الا أن الحكايات المتوارثة تذكره دائما بالتقدير والاحترام ، وتصفه بأنه

« الملك الذى بذل كل جهده ليعلم قبائل الكوبا ويضمن لها الامن والعدل والسلام » .

وقد تم العثور اخيرا على آثار فنية كثيره يرجع تاريخها الى عهد الملك بولو نجونجو ، وقد صنعت معظم هذه الآثار والتماثيل من الخشب والعاج ، وتعتبر بكل المقاييس الفنية ، على مستوى رفيع من فن النحت والتشكيل ، يماثل المستوى الفنى للتماثيل النحاس والبرونز التى تركها شعب « بنين » القديم ..

● ● ●

وفى المناطق الشرقية وراء حدود مملكة « بوشونجو » وعلى الحواف الشمالية لمنطقة الغابات الاستوائية فى أواسط أفريقيا ، كانت تعيش قبائل أخرى معرفة باسم « الباكويزى » BACWEZI وكانوا يتميزون بطول القامة وشدة التحمل ، الامر الذى كان من السهل اطلاق اسم « العمالقة » على هذه القبائل .

وتدل الشواهد التاريخية على أنه منذ ظهور « الباكويزى» العمالقة فى تلك المناطق فى خلال فترة العصور الوسطى وحتى نهاية القرن التاسع عشر ، لم يستطع الاوربيون ولا الاسيويون الوصول الى تلك المناطق ابدا ، ولهذا فقد كانوا يعيشون فى مجتمعات منعزلة ، يسود النظام فيها طبقا للعادات المتوارثة والاحتياجات العامة .

وتصف الحكايات القديمة المتوارثه فى أوغندا هذه القبائل بالشجاعة والاقدام وتحمل الشدائد والحياة الصعبة ، وانهم قوم يرحلون بلا خوف الى أى أرض أو مكان لم يره من قبل انسان ! ..

ويقال أن أصول قبائل « الباكويزى » العمالقة ، قد وفدت مهاجرة من المناطق الحبشية شرق القارة ، واستقرت فى قلب أواسط أفريقيا فى القرن الرابع عشر ، حيث تمكنوا من السيطرة على المناطق الجنوبية لاوغندا الحديثة ، وظلو يحكمونها من سنة ١٣٠٠م حتى سنة ١٥٠٠م ..

وقد استطاعت قبائل « الباكويزى » اقامة مجتمع مركزى سيادى يطبق النظام الصارم الذى تقوم عليه مصلحة القبائل . كذلك فقد سيطرت قبائل « الباكويزى » على بعض مجتمعات القبائل الاخرى الضعيفة التى كانت تعيش فى المناطق المجاورة .



موقع ممالك الأويو

وكان النظام الاقتصادى والاجتماعى لقبائل « الباكويزى » يقـوم أساسا على الرعى والزراعة الموسمية . وقد تركوا آثارا تدل على انهم كانوا من البنائين القلائل بين القبائل التى كانت تعيش فى غرب ووسـط القارة على أيامهم .. فقد قاموا بانشاء الجسـور والسدود ، وان كان ذلك على نطاق ضيق ، كما قاموا ببناء قلاع دفاعية حفروا حولها خنـادق عميقة تمتد على مسافة يبلغ طولها نحو عشرة كيلو مترات ..

وتذكر الحكايات المتوارثة والمنتشرة بين الاوغنديين المحدثين ، أن « الباكويزى العمالقة » كانوا يعتبرون فى مرتبة الالهة بالنسبة للمجتمعات القبلية الاخرى التى تسيطر عليها قبائل الباكويزى وتتحكم فيها .. ولكن مملكة « كيراتا » KIRATA — وهى احـدى المجتمعات الصغيرة التى كانت تحت حكم الباكويزى — اكتشفت انهم بشر مثلهم وليسوا آلهة كمـا كانوا يظنون من قبل .. وبهـذا الاكتشـاف ، زالت قوة العمالقة ودالت دولتهم ..

وتقول هـذه الحكايات أيضا أن العمالقة قد اختفوا فجاة ، ولم يظهر لهم أثر بعد ذلك ، ولكن اغلب الظن انهم تحولوا الى أصول وأجداد لقبائل « الباهيمـا » BAHIMA التى تعيش فى نفس المنـاطق التى كانت تعيش فيها من قبل قبائل الباكويزى العمالقة ..

وقبائل « الباهيما » بدو رعاة رحل . وهم طوال القامة ، ويعيشون حياة غير مستقرة ، يتخللها رحيل مستمر بحثا عن المناطق العشبية حيث يطيب الرعى لقطعانهم ..

● ● ●

وفى وقت معاصر لاختفاء الباكويزى العمالقة ، ظهرت قبائل جديدة فى هـذه المنطقة هى قبائل « اللو » LUO وكانوا على درجة عالية من التنظيم المناسب لطبيعة البيئـة والارض والحياة ، فاعادوا تكوين مملكة « كيراتا » ثم قسموها الى أربع ولايات أو ممالك صغيرة هى :

— بونيورو BONYORO
— بوغنـدا BUGANDA
— تورو TORO
— بوسوجو BUSOGO

وفى خلال القرن السـابع عشر ، استطاعت مملكة « بونيورو » أن تسيطر تماما على جميع المناطق الواقعة فى غرب « أوغندا » الحالية .

وفى القرن التالى ، أصبحت مملكة أو ولاية « بوغندا » من القوة بحيث اسـتطاعت أن تهزم مـملكة « بونيورو » وتضـم أراضـيها .. وظلت « بوغندا » حتى الان تتبوأ مكان الصدارة فى القوة والاتساع بين غيرها من الولايات الاوغندية ..



الفصل الحادى عشر

أرض الـــزنـــج



الفصل الحادى عشر

أرض « الزنج » لها مكانة خاصة فى التاريخ الافريقى .. فهى تذكرنا « بانســـان الزنج » ZINJANTHROPUS الذى كان يعيش منـــذ نحـــو ١٫٧٥٠٫٠٠٠ سنة ، والذى اكتشفه العالم الانثروبولوجى « الدكتور ليكى » فى منطقة « تانزانيا » عام ١٩٥٩ .

ويطلق اسم « أرض الزنج » على الاراضى الساحلية بشرق أفريقيا ، فى المنطقة الممتدة من الصومال حتى موزمبيق .. أما معنى كلمة « زنج » ZANJ فهو على الارجح مستمـــد من الكلمة الفارسيـــة المماثلة ومعناها « الاســـود » ..

وبطبيعة الحال هناك العديد من الحلقات التاريخية المفقودة تماما بين « انسان الزنج » القديم الذى عثر الدكتور ليكى على رفاته متحجرة ، حيث كان يعيش فى العصر الحجرى المبكر ، وبين « الزنج » الذين كانوا يعيشون فى « أرض الزنج » منذ نحو ألفين من السنين ، وكانت لهم حضارة متقدمة .

ويذكر مؤرخو الاغريق القدماء عن الزنج الذين كانـــوا يعيشون فى سواحل شرق افريقيا ، انهم شيدوا مدنا ساحلية كانت على علاقات تجارية راسخة مع شبه الجزيرة العربية والهند ..

وفى سنة ١٢٠م ، كتب « برنيس » — وهو أحد المؤرخين القدماء — بحثا سماه : « حول البحر الاريترى ERYTHRAEAN دليل لمناطـــق شمال غرب المحيط الهندى » ..

وذكر « برنيس » فى هذا البحث ان التجار العرب كانوا يبحرون باستمرار الى سواحل شرق أفريقيا ، ويعقدون المبادلات التجارية مع المدن الساحلية التى كانت منضمة مع بعضها فى دولة واحدة كان اسمها امبراطورية « ازانيا » . AZANIA

وكانت السفن العربية تحمل الى تلك المدن الافريقية انواعا مختلفة من المنتجات الهندية والثياب والاقمشة القطنية بصفة خاصة ، ثم ترجع سفنهم محملة بالتوابل والقرنفل والكثيرمن المنتجات الافريقية كالعاج وقرون الكركدن ودرقات السلاحف ..

وذكر « برنيس » أيضاانالكثير من التجار العرب كانوا مستقرين تماما بأرض الزنج ، وانهم اتخذوا زوجات سمراوات جميلات من نساء الزنج . كما ان هؤلاء العرب قد تعلموا لغة « البانتو » التى كان يتكلمها الزنج ، كما علموا الزنج أيضا اللغة العربية ..

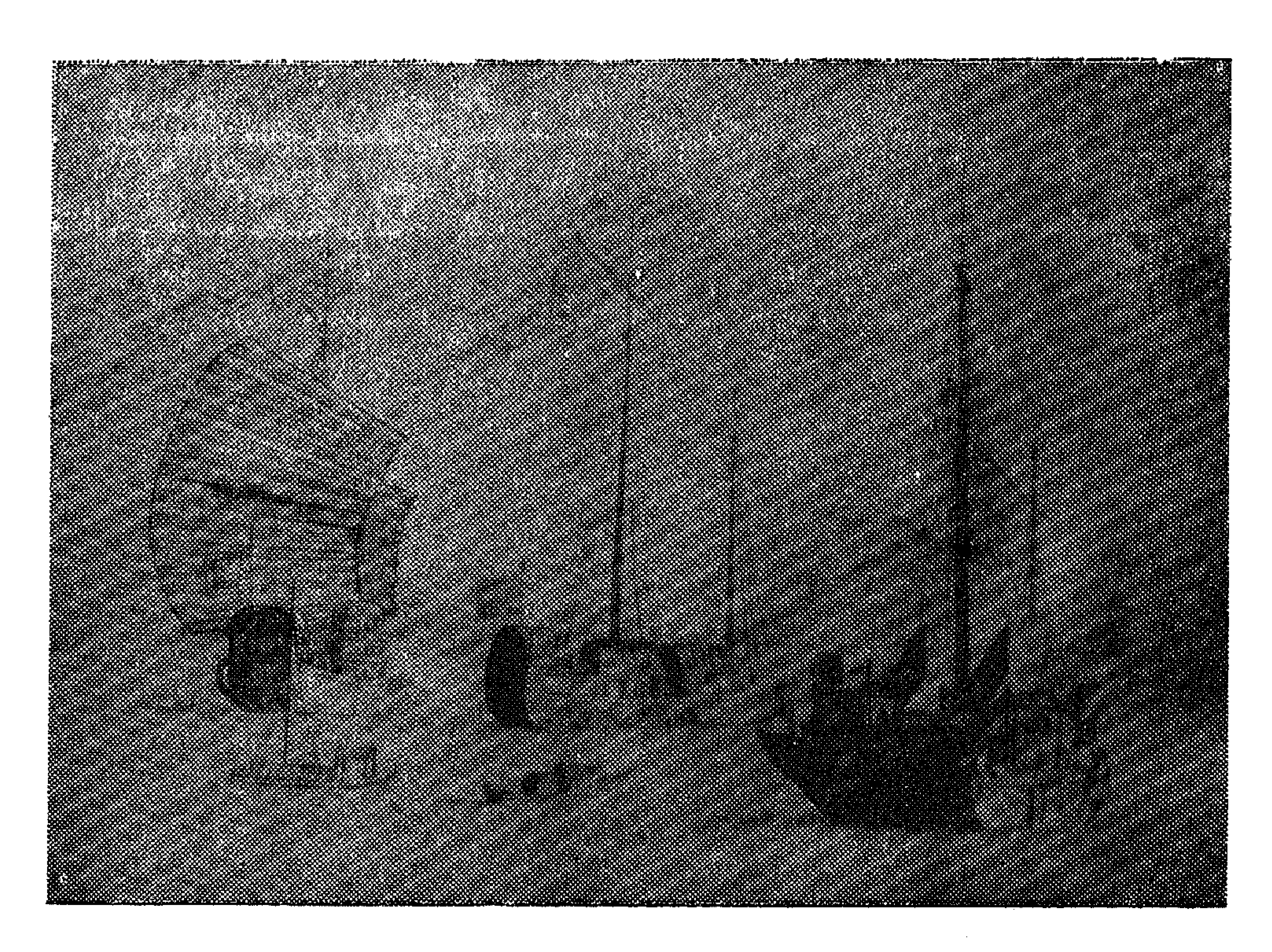
وبمرور الزمن اندمجت هاتان اللغتان فى لغة واحدة متميزة هى اللغة « السواحيلى » SAWAHILI وهى اللغة التى مازالت منتشرة حتى الان فى المناطق الساحلية بشرق افريقيا ، وهى عبارة عن تركيبات منطوقة للكلمات التى ترجع فى اصلها الى مصدرين ، هما لغة البانتو واللغة العربية .

وقد يكون من الصعب أن نتصور ما كانت عليه هذه المدن الساحلية القديمة منذ نحو الف عام .. فقد كانت هذه المدن مزدهرة كمراكز تجارية بين قارتى آسيا وافريقيا .. ابتداء من منطقة القرن الافريقى حتى جنوب موزمبيق ،و هىمسافة تمتد نحو أربعة آلاف من الكيلومترات ..!

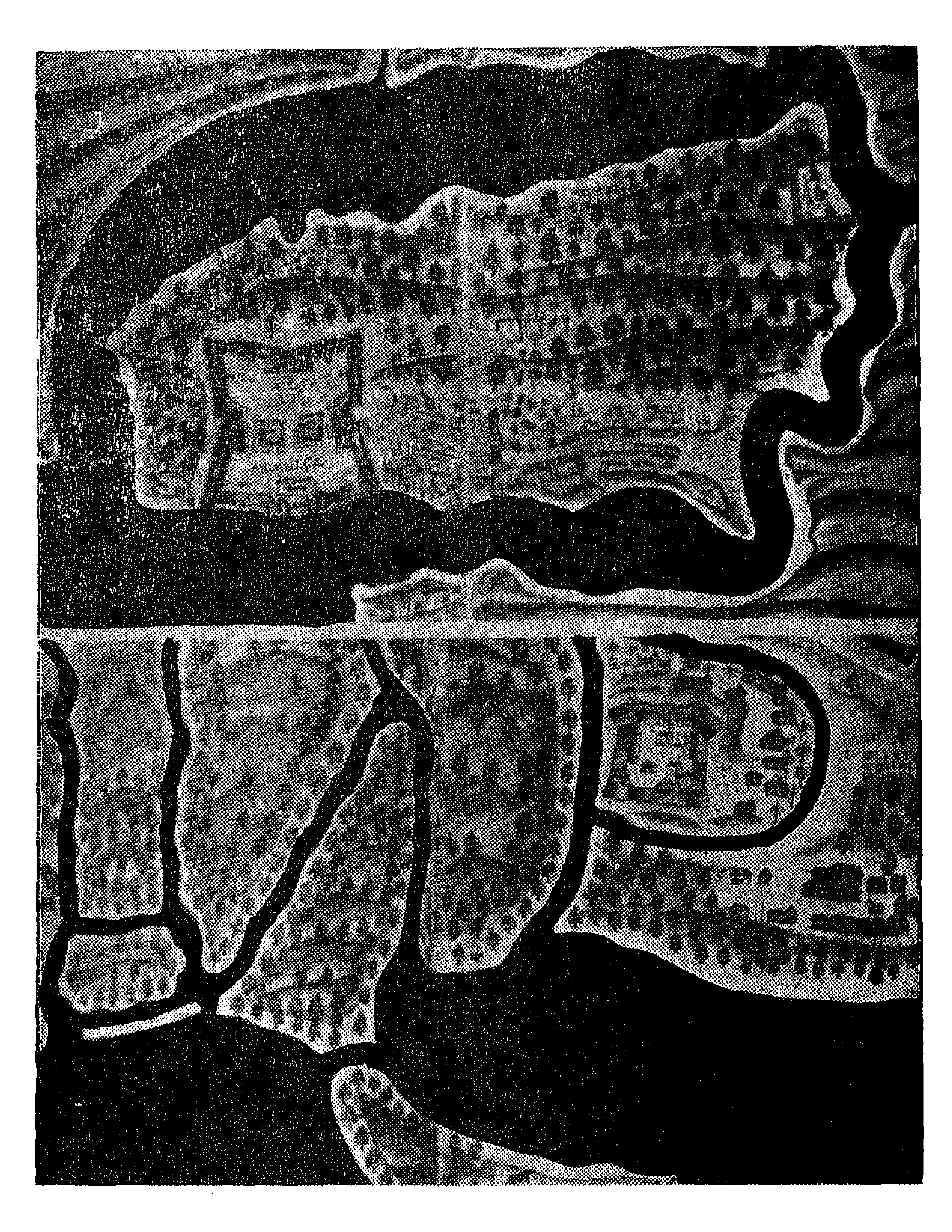
كانت كل مدينة من هذه المدن الساحلية مستقلة سياسيا ، وتكاد تماثل نظام « المدينة الدولة » CITY STATE

وكانت السفن الصينية الشراعية التجارية الضخمة ، تصل الى تلك المدن من الصين ، وعليها بضائع وتجار من الصين والهند وفارس وبورما وسيام ..

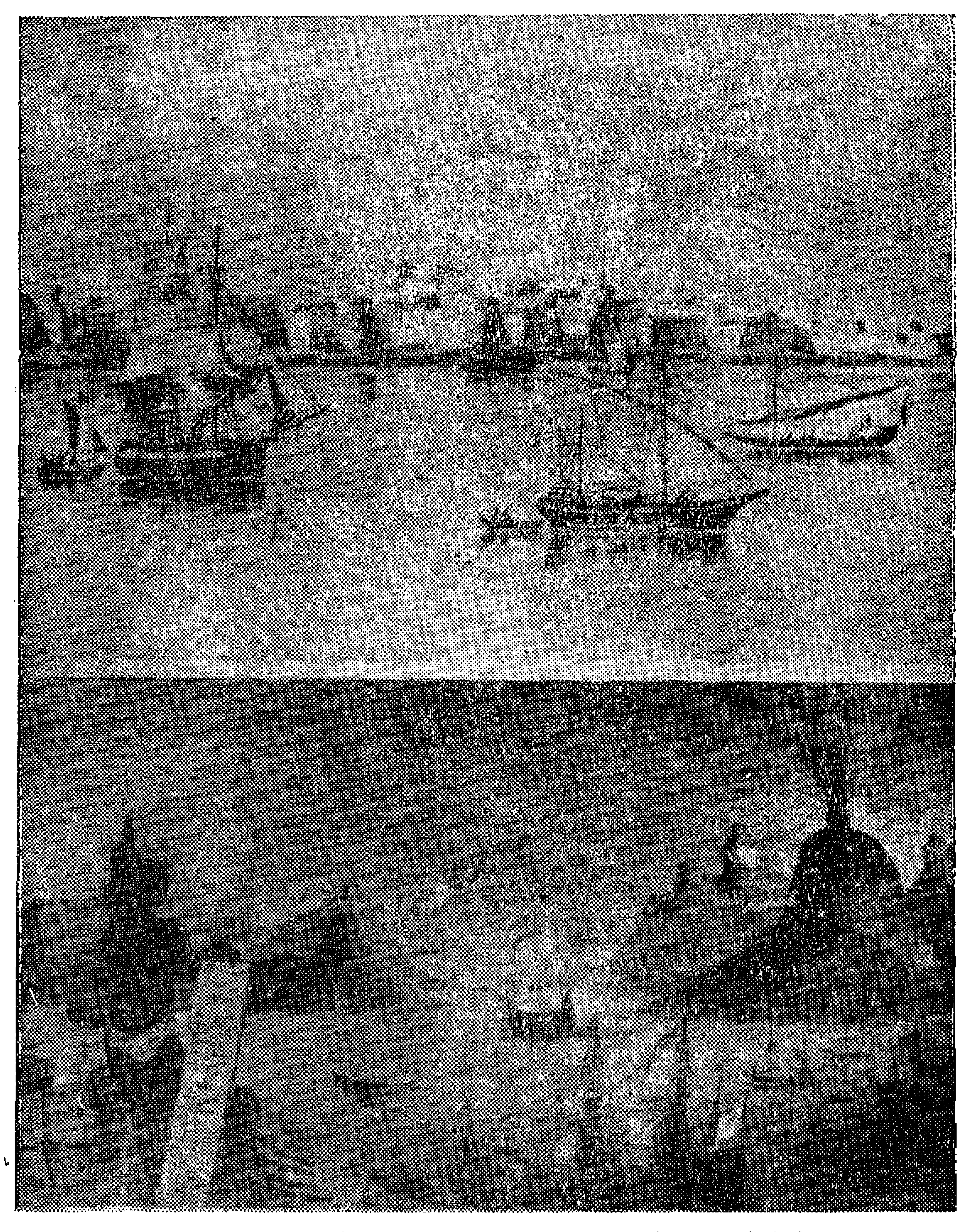
وبعد أن تنتهى عمليات المبادلات التجارية ، تتولى المدينة نقل هذه البضائع للاتجار بها فى المناطق الداخلية بوسط وغرب القارة . اى أن هذه المدن كانت عبارة عن مناطق « ترانزيت » للبضائع العابرة القادمة من آسيا



نماذج للسفن الشراعية الصينية التى كانت تتردد على سواحـل
شرق آفريقيا قبل القرن الخامس عشر



العليا : رسم تخطيطى قديم لمدينة « ممباســـا » .
السفلى : رسم تخطيطى قديم لقلعة مدينة « سوفالا » .



العليا : ميناء قديم فى جزيرة زنجبار ••
السفلى : الحركة الملاحية القديمة على سواحل شرق أفريقيا.

لتباع فى اسواق الممالك والامبراطوريات الافريقية الواقعة على امتــداد الطريق الطويل بين شرق أفريقيا وغربها..

وحتى القرن الثانى عشر ، كانت الموانى الواقعة فى منطقة موزمبيق الحديثة ، هى المورد الاول للذهب بالنسبة للدول والممالك الاســيوية .. فقد كانت تقوم بتصدير خام الذهب المستخرج من المناجم الغنية فى جنوب « روديسيا » فى مقابل الاقمشة والسلع الاسيوية الاخرى ..

وفى منتصف ذلك القرن ، أصــبحت مدينة « كيــلوا » KILWA الواقعة على الساحل التانزانى ، مدينة قوية من الناحية الاقتصادية ، حيث اعتبرت نفسها المحتكر الوحيد لتجارة الذهب .

كذلك فقد تركزت تجارة « الحديد » المستخرج من المناجم الافريقية الداخليــــة فى مدينتى « مالیندی» MALINDI و « ممباســــــــا » MOMBASSA الــواقعتين فى دولة « كينيــا » الحــديثة . وكــذلك مدينة « سوفالا SOFALA الواقعة فى دولة « موزمبيق » ..

وكان الحديد الافريقى يصدر بكميات كبيرة الى شبه الجزير العربية والى الهند .. وكان التجار العرب يقولون : « أن الهنود كانوا يفضلون الحديد المستخرج من أفريقيا عن الحديد المستخرج من الهند نفسها ، وذلك لشدة نقائه واستجابته الطيعة لمراحل التصنيع المختلفة » ..

● ● ●

أما جزيرة « زنزبار » أو « زنجبار » ZANZIBAR ومعنـــاها الحــرفى « ســاحل الزنــج » فقــد كانت هى الاخــرى مركزا هــامــا للمبادلات التجارية بين قارتى آسيا وأفريقيا ، وكانت تصل اليهادائما السفن الشراعية التجارية القادمة من جاوه وسومطرة والصين والهنــد ، محملة بالبضائع والمنتجات الاسيوية التقليدية ، لتبيعها فى مقابل الذهب الذى كان يصل الى زنجبار من موانى السواحل الشرقية للقارة الافريقية .

ومنذ القرن الحادى عشر ، استوطنت زنجبار والمدن الساحلية بشرق أفريقيا مجموعات كبيرة من العرب الذين كانوا ــ ومازالوا ــ يعملون فى التجــارة .

وقد ادى استقرار العرب بتلك المناطق بطبيعة الحال الى انتشار الديانة الاسلامية وانتشار اللغة العربية ، كما استخدمت الابجدية العربية فى كتابة اللغة « السواحيلى » واقيمت المساجد والجوامع الكبيرة والصغيرة فى جميع انحاء سواحل شرق افريقيا ، ومع ذلك وبالرغم من كل هذا التأثير العربى ، فقد احتفظ الزنج بثقافاتهم الافريقية المتميزة . .

● ● ●

وفى القرن الرابع عشر ، ترابطت المدن الساحلية مع بعضها فى نوع من « الاتحاد الكونفدرالى » الذى احتفظت فيه كل مدينة باستقلالها ، وتكونت عندئذ مملكة الزنج أو « امبراطورية الزنج » . .

وكانت مدينة « كيلوا » آنئذ أقوى هذه المدن وأكثرها ثراء ، ولذلك فقد تبوأت مكان الصدارة فى هذا الاتحاد لمدة طويلة . . وقد وصفت مدينة « كيلوا » فى المخطوطات القديمة بأنها « من أجمل مدن العالم » . . !

ورغم أن هذه المدينة التاريخية القديمة كانت على مثل هذا القدر من القيمة ، الا انها لا تعدو الان اكثر من قرية جميلة على شواطىء تانزانيا . . ولكن اذا نظرنا الى اعلى الجبل الذى يشرف على تلك القرية ، لظهرت لنا على الفور ، اطلال قلعة قديمة كانت مبنية من الحجر ، تعتبر خير شاهد على ما كانت عليه هذه المدينة من قوة فى الايام الخوالى . .

وهذا الوصف الذى قيل عن مدينة « كيلوا » القديمة ، كان ينطبق أيضا — بدرجات متفاوتة — على المدن الساحلية الاخرى بشرق أفريقيا ، والتى كانت لها هذه العلاقات التجارية الواسعة مع الدول والممالك الاسيوية .

وفى خلال هذه الفترة من التاريخ ، كان الاوربيون قد استطاعوا بناء السفن الكبيرة ذات الشراعين ، وبدأوا يجوبون بحار ومحيطات العالم ، وفى نفس الفترة كانت الصين تتبوأ مكانة عالية فى عالم الملاحة البحرية التجارية ، واستطاعوا بناء سفن ضخمة تصل حمولتها الى الفين من الاطنان ، ومصممة لتسير اعتمادا على سبع أشرعة ، وهى سفن تعتبر اكثر ضخامة واكثر تقدما اذا قورنت بسفن الاوربيين المعاصرة لها . .

وكانت هذه السفن الصينية الضخمة تصل باستمرار الى المدن التجارية بسواحل شرق افريقيا .. وهناك وصف مكتوب لاحد الاساطيل التجارية الضخمة التى وصلت من الصين والقت مراسيها بالموانى الافريقية ، وكان هذا الاسطول يحمل على متنه ٢٧٠٠٠ سبعة وعشرين الفا من الصينين .. !!

ومنذ سنة ١٥٠٠ م ، امتنع وصول السفن التجارية الصينية الضخمة الى شواطىء شرق افريقيا ، ولم يعرف حتى الان ما هو السبب الذى جعل الصينيون يحجمون عن الابحار بسفنهم ، بل ويغلقون ترسانات بناء السفن الجديدة ، ويدمرون جميع أساطيلهم التى كانت موجودة وعاملة بين موانى الصين والموانى الاسيوية والافريقية الاخرى ..

وفى عام ١٤٩٧ م ، بدأت ارض الزنج تفقد مكانتها التجارية ، بعد ان وصلها البحار الرحالة البرتغالى « فاسكو دى جاما » VASCO DA GAMA حين كان يستكشف الطريق البحرى الى الهند ، وسال لعابه حين شاهد كميات الذهب الموجودة بهذه المناطق من سواحل شرق افريقيا .

وفى اعقاب وصول « فاسكو دى جاما » الى هذه المدن ، وصلت اليها تباعا سفن القراصنة والمغامرين البرتغال الذين قاموا بنهب هذه المدن وتدميرها .. وهكذا صنع البارود البرتغالى بمدن وممالك شرق أفريقيا ، ما صنعته تجارة العبيد « البرتغالية أيضا » بممالك وأمبراطوريات غرب أفريقيا ..

وفى القرن السابع عشر ، كانت امبراطورية الزنج ومدنها قد دمرت تماما ، وانتهت اهميتها التجارية ، وزالت أيام مجدها الاقتصادى الزاهر ، ولم يبقى منها الا مخطوطات مكتوبة باللغة السواحيلى ، تتحدث عن مجد غابر ، مازال فخرا قائما حتى الان بين جميع الشعوب التى تعيش حاليا فى هذه المناطق ..



الفصل الثانى عشر

زيمبابوى الكبرى



الفصل الثانى عشر

منذ نحو ألف وخمسمائة عام ، كانت قبائل « البانتو » BANTU تعيش فى المناطق الشرقية لنيجيريا ومناطق أواسط الكاميرون .. ولكنها لظروف كثيرة قررت الهجرة من هذه المناطق وبدأت فى ذلك التاريخ تشد الرحال جنوبا بشرق ، حتى وصلت الى حوض نهر « الكونغو » ، ثم واصلت الهجرة حتى استقرت اخيرا فى المناطق الواسعة جنوب شرق افريقيا ..

ولم تكن جماعة البانتو منتمية الى قبيلة واحدة ، وانما كانت أغلب الظن عدة قبائل مترابطة فيما بينها بشكل ما ، وان كانت تتكلم لغات ولهجات متعددة ..

وربما كان السبب فى هجرة معظم الشعوب الافريقية التى كانت تعيش فى المناطق المتاخمة للحدود الجنوبية للصحراء الكبرى ، فى ذلك الزمن القديم ، وبالتحديد فى القرنين الرابع والخامس الميلاديين ، يرجع بصفة اساسية الى تحول معظم هذه القبائل والشعوب من العصر الحجرى ودخولها عصر الحديد ، حيث أصبحت تستعمل الادوات والاسلحة الحديدية: فزادت قوة هذه القبائل واكتسبت القدرة على غزو القبائل والشعوب الاخرى التى لم تدخل عصر الحديد بعد ، والاستيلاء على اراضى ومناطق جديدة .

وحين بدأت قبائل البانتو هجراتها وغزواتها فى اتجاه الجنوب الشرقى، كانت مسلحة بحراب وسهام ورماح لها نصال مسنونة مصنوعة من الحديد ، وحدث أول اصطدام بينهم وبين قبائل « المبوتى » MBUTI الاقزام التى كانت تعيش حياة بدائية لا أسلحة فيها ، أو أن وجدت الاسلحة لدى بعض العشائر ، فهى اسلحة بدائية جدا لا يدخل فيها الحديد ..

وتتميز « قبائل الاقزام » PYGMIES بقصر القامة ، اذ لا يتجاوز طول الفرد مترا واحدا أو مترا وربع متر فى بعض الاحيان .. وهم يعتمدون فى حياتهم على الصيد بصفة اساسية .. وقد كان من المتوقع ان يعم الذعر بين قبائل الاقزام عندما حلت قبائل « البانتو » بأراضيهم ، وهذا ما حدث بالفعل ، حيث اضطر الاقزام الى الرحيل متوغلين فى اعماق الغابات الاستوائية ، حيث لا يستطيع أحد الوصول اليهم ، ليدرأوا عن انفسهم أى خطر أو ملاحقة من قبائل البانتو الوافدة الى اراضيهم فىذلك التاريخ القديم ..

ولكن بعض قبائل الاقزام استطاعت ان تعقد صداقات مع قبائل « البانتو » بل وقام الاقزام أيضا بارشاد قبائل البانتو الى مناطق اخرى جديدة فى اتجاه الجنوب .. ولهذا فقد تمكنت بعض قبائل البانتو من اقتحام مناطق جديدة فى الاجزاء الشرقية والاجزاء الوسطى لجنوب افريقيا .. واصطدم « البانتو » مرة أخرى بقبائل « البوشمن » BUSHMEN التى تعيش حياة بدائية معتمدة على الصيد فى هذه المناطق .. ولا يزيد أقصى طول للفرد من قبائل « البوشمن » عن متر ونصف المتر ..

وكما حدث لقبائل الاقزام ، فقد فرت بعض قبائل « البوشمن » الى صحراء « كلاهارى » KALAHARI فى جنوب القارة ، لتعيش فى مناطقها القاحلة ، هربا من قبائل « البانتو » . كما بقيت بعض قبائل « البوشمن » الاخرى واندمجت فى مجتمع قبائل البانتو الذى كان يعتبر أكثر تقدما من مجتمع « البوشمن »..

• • •

ومن المعروف أن التحول من العصر الحجرى الى عصر الحديد لم يتم فجأة ،وانما حدث التحول عبر اجيال استطاعت أن تتعلم وتستوعب بالتدريج عمليات تعدين الحديد ، أى استخراجه من مناجمه وصهره وسبكه وتشكيله ..

ومما لا شك فيه ان التحول الى عصر الحديد ، قد احدث ثورة ثقافية وحضارية فى المجتمعات التى تحولت منالعصر الحجرى الى عصر التعامل مع الحديد .

وتدل الشواهد التاريخية على أنه فى خلال الالف سنة الاولى بعد الميلاد ، حدث هذا التحول التدريجى لقبائل « البانتو » .. فقد كانوا من قبل يعتمدون على الصيد أساسا مع استعمال بعض الادوات الحجرية أو الصخرية البسيطة ، كما كانوا يعتمدون فى غذائهم النباتى على قطف الثمار والخضروات البرية . ثم تعلموا بالتدريج عمليات التعامل مع الحديد وتطويعه لصنع الرماح والسهام والادوات المدنية الاخرى .

وكان من نتيجة ذلك حدوث تحول كبير فى حضارة مجتمعات البانتو ، فقد كان استخدام الاسهم والرماح ذات النصال الحديدية سببا مباشرا فى تحقيق زيادة كبيرة فى انتاج الصيد ، كما كان استخدامهم للفئوس والادوات الحديدية الاخرى فى عمليات الزراعة البسيطة سببا مباشرا فى استقرار جماعات البانتو فى الارض ، وانهوا بذلك حياتهم البدوية التى كانوا يعيشونها من قبل ، والتى كانت تدفعهم باستمرار الى الارتحال من منطقة الى اخرى حيث يتوفر الصيد أو تتوفر الفواكه والنباتات البرية الصالحة للطعام ..

كذلك فقد كان استخدام الحراب والرماح ذات النصال الحديدية سببا مباشرا فى ازدياد القوة العسكرية لقبائل البانتو ، الامر الذى دفعها الى نوع من الاتحاد والتقارب ، ثم استطاعت عشائر هذه القبائل التى أصبحت أقوى من غيرها من العشائر الاخرى ، ان تسيطر وان تقر نظما موحدة تسرى على الجميع دون استثناء .. وبذلك تمكنت قبائل البانتو ككل من بلوغ قوة تؤهلها لغزو المزيد من القبائل الاخرى والاراضى الجديدة .

وباستقرار البانتو فى مناطق جنوب شرق أفريقيا ، بدأوا حياة جديدة تقوم على الزراعة بجانب الصيد ، واستطاعوا أن يصنعوا من الحديد ادوات زراعية تناسب البيئة وطبيعة التربة ، كما استطاعوا أن يدركوا انهم اذا قاموا بحفر سفوح التلال على شكل مدرجات ، فان ذلك يمكنهم من صيانة التربة وزيادة المساحة وسهولة الرى ، وقد ادى ذلك بطبيعة الحال الى وفرة الطعام لدى قبائل البانتو وشعورهم بالتالى بمزيد من الاستقرار والطمانينة ..

ولكن هذه الحياة التى يتوفر فيها الصيد والطعام بكميات كبيرة ، لم تدم طويلا بين اجيال البانتو المتعاقبة ، فقد تميزوا بزيادة معدل التناسل الى أقصى حد .. وازدادت اعدادهم بالتالى بنسبة تفوق قدرتهم على الانتاج وقد تأثرت حياتهم فى الماضى بهذاالانفجار السكانى ، بل ومازال هذا المعدل للتناسل بين قبائل البانتو يطبع حياتهم حتى الان ..

● ● ●

وتدل الشواهد التاريخية على أن هجرات قبائل البانتو قد حدثت فى ثلاث موجات WAVES متعاقبة استغرقت نحو سبعمائة سنة ..

ويمكن القول بأن قبائل البانتو التى شكلت الموجة الاولى ، هم الاجداد المباشرون للقبائل التى تتكلم لغة « الشونا » SHONA SPEAKING والتى تعيش الان فى روديسيا .. حيث استقر هؤلاء الاجداد على طول الشواطىء الشمالية لنهر « زامبيزى » ZAMBEZI وكان ذلك فى الفترة ما بين القرنين الرابع والسادس الميلاديين ..

وعلى بعد سبعة وعشرين كيلو مترا من مدينة « فورت فيكتوريا » FORT VICTORIA الحديثة ، اختار هذا الفوج الاول من مهاجرى البانتو عاصمتهم الملكية وسموها « زيمبابوى » ZIMBABWE .

وكلمة زيمبابوى — بلغة البانتو — مكونة من مقطعين : «زيمبا » بمعنى « بيوت » و .. « بوى أو بجى » بمعنى « أحجار » ..ومعنى الكلمة اذن هو « البيوت الحجرية » وهذه التسمية لم تأت من فراغ ، وذلك لان طابع الاستقرار الذى اصبحت عليه قبائل البانتو جعلها تتجه منطقيا الى بناء بيوت من الاحجار والصخور بدلا من الاكواخ العشبية التقليدية التى كانوا يعيشون فيها من قبل ..

أما الموجة الثانية لهجرة قبائل البانتو فقد حدثت فى اواخر القرن الحادى عشر الميلادى .. حين رحلت موجة كبيرة من قبائل البانتو المتحدثة بلغة «الشونا» واستقرت فى منطقة واسعة تبعد نحو ثلثمائة وعشرين كيلومترا جنوب زيمبابوى حيث استقرت الموجة الاولى ..

وقد عرفت القبائل المهاجرة فى الموجة الثانية باسم « قبائل الكارانج » KARANG وكانت سعيدة الحظ لان المنطقة الجديدة بجنوب شرق أفريقيا والتى استقرت فيها هذه القبائل كانت غنية بمناجم الذهب ..

وقد ظلت قبائل « الكارانج » تقوم بدور المورد الرئيسى للذهب الذى يقدمونه للتجار فى مدن وموانى سواحل شرق افريقيا « أرض الزنج » فى مقابل حصولهم على احتياجاتهم من السلع المعروضة فى اسواق تلك المدن والموانى ..

وعندما أزدادت قبائل الكارانج قوة ، كانت تتضائل فى الوقت نفسه موارد الملح الموجودة فى المنطقة التى يعيشون فيها ، ولهذا فقد تطلعت قبائل الكارانج نحو الشمال القريب ، حيث يعيش بنو عمومتهم فى زيمبابوى. وانتهى الامر بهم الى الاستيلاء على زيمبابوى واعلانها كعاصمة جديدة لملكتهم الجديدة .. وسموها « زيمبابوى الكبرى » THE GREAT ZIMBABWE

وقد اعتبرت « زيمبابوى الكبرى »أكبر واعظم مدينة مبنية بالاحجار فى جميع مناطق افريقيا السوداء جنوب الصحراء الكبرى .. وظلت مزدهرة وحصينة وبعيدة عن منال الطامعين حتى بدايات القرن التاسع عشر ..

ونتيجة للدراسات التى اجريت على بقايا وآثار زيمبابوى الكبرى ، تبين ان هذه المدينة لم تبنى دفعة واحدة ، بل أخذت تتسع على مدى قرون متعاقبة بفضل الاضافات التى كانت تجريها الاجيال المتتالية من قبائل البانتو والكارانج .

ويرجع تاريخ اقدم الاثار الموجودة فى اطلال زيمبابوى الكبرى الى نحو الف عام مضت .. وتقوم الانشاءات والمبانى فى هذه المدينة على أساس فكرة « البناء الدائرى » أو البناء المستدير ، وهى فكرة مستلهمة بطبيعة الحال من نفس فكرة بناء الاكواخ العشبية والطينية ذات الشكل الافريقى التقليدى ..

● ● ●

وفى خلال السنوات الاولى من القرن الخامس عشر ، تولى الحكم اقوى ملك من ملوك « الكارانج » وهو الملك مونوموتابا MONOMOTAPPA واعلن امبراطورية « زيمبابوى الكبرى » ..

وقدكان الملك « مونوموتابا » فى حكم « الاله » بالنسبة لقبائل البانتو ، وكان الناس فى حضرته لا يسجدون فقط ، وانما ينبطحون أرضا ويزحفون على بطونهم عند دخولهم اليه أو خروجهم من عنده .. !

وكان « مونوموتابا » قائدا حربيا ماهرا ، وصاحب تطلعات توسعية، ففي سنة ١٤٢٥م استولى على المناطق الغنية بمناجم الذهب الواقعة بين نهر زامبيزى ونهر ليمبوبو ZAMBIZI & LIMPOPO ثم اتجه شرقا ليستولي على المدن والموانى الواقعة على سواحل موزمبيق MOZAMBIQUE .

وفي عهده أيضا اتسعت مدينة زيمبابوى الكبرى وانشئت فيها المبانى والقلاع والقصور الضخمة ..

وما أن انتصف القرن الخامس عشر ، حتى اصبحت مملكة مونوموتابا وعاصمتها زيمبابوى الكبرى مسيطرة على جميع المساحات الواسعة الواقعة بين نهر زامبيزى والمحيط الهندى ، والممتدة نحو أكثر من ألف كيلو متر من موقع روديسيا الجنوبية حتى الحدود الشمالية للترانسفال TRANSVAL

ومن اعظم واضخم المبانى التى شيدت فى عهد مونوموتابا « قلعة الجبل » التى عرفت فيما بعد باسم « الاكروبوليس » ACROPOLIS والمعبد او القصر الضخم الذى بنى على سفح الجبل تحت القلعة ، مطلا على الوادى .. وقدتم تشييد هذه الابنية الضخمة بأحجار الجرانيت المحلية الموجودة بكثرة فى المنطقة .

وقد اعتبرت هذه المبانى الجرانيتية الضخمة من عجائب الدنيا ، اذ لم تستعمل المونة أو الملاط فى لصق الاحجار عند التشييد ، وانما تم ذلك بدون استعمال اى مواد لاصقة على الاطلاق ، ورص الاحجار الجرانيتية بعد نحتها وتسويتها فوق بعضها بطريقة التوازن النسبى بين الكتل الحجرية المستعملة فى البناء ، كما كانت تنحت بعض الكتل بطريقة «عاشق ومعشوق » وبطرق أخرى أكثر تعقيدا ، حتى تصبح فى النهاية حلقات ربط بين الصخور والكتل الحجرية ويرتفع البناء على هذا الاساس ..

وتدل الاثار الباقية من المعبد أو القصر على أنه كان يشغل مساحة قدرها نحو تسعين مترا طولا ونحو ستة وسبعين مترا عرضا . وكان مبنيا بأكمله من الجرانيت .. وكان مكونا من عدة مبانى متكاملة تتصل ببعضها عن طريق ممرات جرانيتية ذات جدران ترتفع نحو تسعة امتار ، ويصل سمكها الى ما يزيد عن أربعة امتار .. وفى اعلى جدار القصر تظهر شارة المملكة منحوتة فى كتلة جرانيتية ضخمة ..!

أما برج القصر ، فكان ذا شكل قمعى ، ومبنيا هو الاخر من الجرانيت، بارتفاع يصل نحو عشرة امتار ..

ويقول علماء الاثار الذين درسوا بقايا هذه المنشآت الضخمة ، أن قلعة الجبل ، كانت تضاف اليها باستمرار ابنية واضافات جديدة لتجعلها اكثر قوة ومناعة ، وقد استمرت هذه الاضافات حتى منتصف القرن الثامن عشر ..

ومن الغريب ان مدينة زيمبابوى الكبرى لم تكن المدينة الجرانيتية الوحيدة فى مملكة مونوموتابا ، بل كانت هناك أكثر من ثلثمائة مدينة جرانيتية اخرى عثر على اثارها وبقاياها فى معظم مناطق روديسيا وموزمبيق ..

وقد استمرت مملكة مونوموتابا حتى بداية القرن السابع عشر ، حين حدثت بعض التغييرات التى أدت الى زوال ونهاية هذه المملكة ، على يد ابناء عم آخرين من قبائل البانتو المتكلمة بلغة « الشونا » ..

• • •

فىهذه الفترة حدثت الموجة الثالثة لهجرات قبائل البانتو متمثلة فى قبائل « الروزوى » ROZWI التى زحفت نحو زيمبابوى الكبرى واستولت عليها وطردت الاسرة الحاكمة وشعب مملكة مونوموتابا ، وتولت العرش اسرة حاكمة جديدة انشأت مملكة جديدة هى « مملكة الروزوى » واتخذت من زيمبابوى الكبرى عاصمة لها ..

اما شعب البانتو والكارانج الذى كان يعيش فى مملكة مونوموتابا ، فقد تشتت فى الجنوب ، ولجأ الى البرتغاليين طالبا حمايتهم من مملكة « الروزوى » .. وكان البرتغاليون أيامئذ قد استقروا مسيطرين على سواحل جنوب شرق افريقيا ..

ورغم ان البرتغاليين قد وعدوا شعب مونوموتابا بالحماية ، الا أن هدفهم الاساسى كان تسخيرهم لمعرفة اسرار مناجم الذهب المنتشرة فى مملكة زيمبابوى ، بالاضافة الى تسخيرهم فى الاغارة على المناطق الجنوبية الداخلية بالقارة ، لقنص العبيد وتسليمهم للنخاسين البرتغال ..

وحين اكتشف شعب مونوموتابا هذه الحقيقة المفجعة فى العلاقة التى قامت بينهم وبين البرتغال ، شدوا رحالهم من جديد ، متجهين الى الانعزال فى اقصى مناطق جنوب القارة ، ولكنهم مع ذلك لم يفلتوا من البرتغاليين ، وظلوا تحت رحمتهم ..

واستمرت مدينة زيمبابوى الكبـــرى عاصـــمة لمملكة « الروزوى » وازدادت قوتها واتسع عمرانها وتحصنت تلاعها ، لدرجة اصبحت بها فى منأى تماما من اطماع البرتغاليين . كذلك فقد حدث تجديد فى فن النحت ، بتشكيل العديد من التماثيل والشارات والشعـــارات من حجـــر « التلك » الابيض المزرق الصابونى الملمس ..

● ● ●

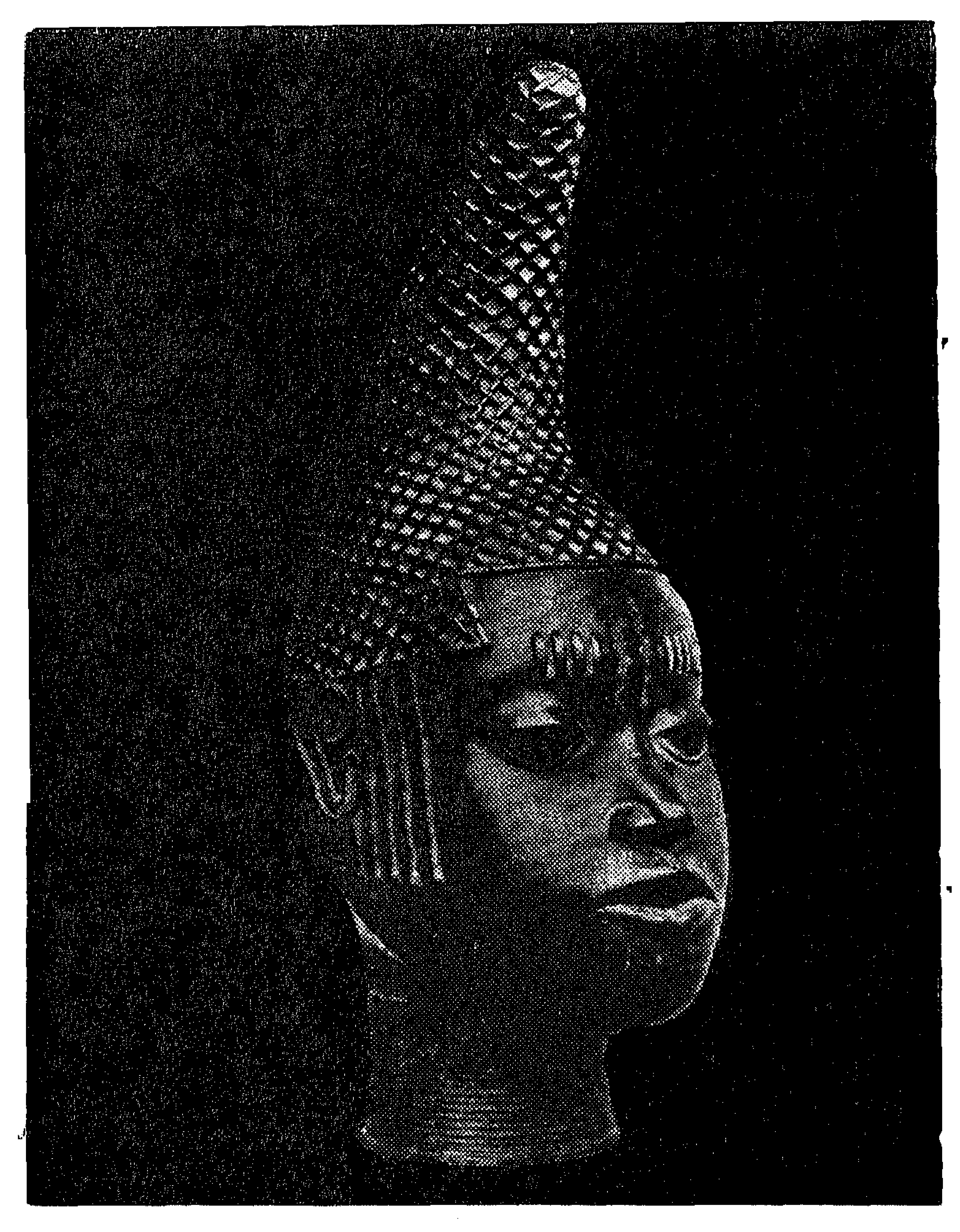
ولسوء الحظ فان المعلومات التاريخية عن هذه الممالك الثلاث التى اتخذت زيمبابوى الكبرى عاصمة لها ، تعتبر ضـــئيلة للغاية ، ولا تكفى لتكوين فكرة عامة مؤكدة عن نظم الحكم أو الاحداث الاخرى التى تعرضت لها هذه الممالك على مدى خمسة عشر قرنا من الزمان ..

والكتابات المدونة التى جاء فيها ذكر هذه الممالك ، تنحصر فى تلك الحكايات النادرة التى ذكرها الرحالة البرتغاليون الذين توغلوا فى عمق المناطق الداخلية بجنوب أفريقيا ، وصدموا عندما شاهدوا مدنا افريقية كثيرة مبنية كلها من حجر الجرانيت ..

وقد حاول البرتغاليون وغيرهم من المستعمرين الاوربيين أن يصلوا الى مدينة زيمبابوى الكبرى فلم يستطيعوا الوصول اليها ، الا فى منتصف القرن التاسع عشر ، وبالتحديد فى سنة ١٨٤٠م ، حين انهارت امبراطورية « الروزوى » .. آخر ممالك وامبراطوريات قبائل البانتو ..

وحين اكتشفت آثار واطلال المبانى الضخمة التى شـــيدتها ممالك البانتو فى زيمبابوى الكبرى لم يستطع علماء الاثار أن يتصـــوروا أن هذه البنايات الضخمة كانت من صنع الافريقيين ، وكادوا أن يوعزوها الى شعوب أو قبائل اخرى غير افريقية ..

ولكن اصبح من المستقر عليه علميا وتاريخيا ، أن جميع هذه المـــدن الافريقية الجرانيتية ، كانت من تصميم وبناء المهندسين والبنائين من قبائل البانتو التى صنعت حضارة على مثل هذا القدر من العظمة ، طوال الف وخمسمائة عام من تاريخ افريقيا ..



تحفة فنية رائعة من نحت فنان
افريقى فى القـرن السادس عشر

خاتمة

من المسلم به أن هناك الكثير من الحلقات المفقودة فى تسلسل التاريخ الافريقى للقبائل والشعوب التى تعيش جنوب الصحراء الكبرى .

ولكن بالرغم من ضآلة المعلومات عن الممالك والامبراطوريات التى ظهرت وتألقت فى حقب مختلفة من التاريخ البعيد والتاريخ القريب فان من السهل تركيب صورة عامة تؤكد عظمة التراث الحضارى لهذه القبائل والشعوب التى عاشت فى تلك المناطق والاطراف المترامية فى شرق وغرب ووسط وجنوب القارة .

ومازال علماء الاثار يبحثون حتى الان عن مزيد من الشواهد التى تلقى مزيدا من الضوء على تلك الحضارات التى يرجع بعضها الى التاريخ القديم ، ويرجع بعضها الاخر الى فترة العصور الوسطى ..

كذلك فان علماء اللغات مازالوا عاكفين على محاولات فك رموز الكتابات القديمة التى استعملتها القبائل والشعوب القليلة التى عرفت الابجديات ، ودونت بها ما عن لها من اخبار أو وصف للاحداث . وعلى سبيل المثال ، فلم يتوصل علماء اللغة حتى الان الى فك اسرار اللغة التى كتب بها شعب « كوش » القديم ، مئات من الموضوعات على جدران المقابر والمعابد والاهرامات ، والتى مازالت اسرارا مغلقة حتى الان ..

وحتى المعلومات النادرة التى تركها بعض المؤرخين والجغرافيين والرحالة العرب القدماء الذين جابوا تلك المناطق الافريقية فى ايامهم، تعطينا صورة مبهرة لما كانت عليه الكثير من الممالك والامبراطوريات الافريقية السوداء فى خلال فترة العصور الوسطى ..

أما المعلومات المستخلصة من القصص والحكايات والاســاطير التى تتوارثها أجيال قبائل وشعوب افريقيا السوداء ، وتتناولها فيما بينها جيلا بعد جيل ، فيمكن الاعتماد عليها فى القاء مزيــد من الضــوء على التاريخ الافريقى .

ومن حسن الحظ أن من السهل استخلاص المعلومات التاريخية من تلك القصص بعد استبعاد الاحداث الخيالية والحكايات الاسطورية التى لا يمكن تصديقها لتبقى بعد ذلك مجموعة من المعلومات الواقعية عن تاريخ الشعوب وتاريخ الملوك والاباطرة الذين حكموا هذه الممالك والامبراطوريات فى حقب التاريخ المختلفة .

وتأتى الشواهد التاريخية فى احيان كثيرة بما يــؤكد هذه المعلومات التاريخية المستخلصة من القصص والحكــايات والاساطير المتوارثــة .. ولتعطينا بعد ذلك صورا مبهرة عن الكثير من الملوك العظام الذين كانوا على قدرة عسكرية كبيرة ، استطاعوا بها انشاء امبراطوريات واســعة مترامية الاطراف ، كما انشأوا نظما مستقرة للحكم ، وحــكومات مركزية تتحكم فى جميع سلطات الحكم المحلية فى جميع أرجاء الامبراطورية مهمــا تباعدت .

كذلك استطعنا معرفة الكثير عن تاريخ تلك المدن العظيمة القديمة التى كانت منارات للعلم والدرس ، وفيها جامعات كانت تضم آلاف الطــلاب من قارتى آسيا وافريقيا ، مثل مدينة « جينى » ومدينة « تمبوكتــو » . كمــا استطعنا أيضا أن نعرف الكثير عن المستوى الراقى لفن النحت بين شعوب مملكة «أيفى» وامبراطورية « بنين » ..

وفى معظم الاحيان يتناسى العلماء والمؤرخون ان الحضارات الافريقية التى ظهرت جنوب الصحراء الكبرى تعتبر جــزءا لا يتجــزأ من تاريــخ الحضارات الانسانية التى ظهرت فى جميع قارات العالم .

ان الجهل بهذا التاريخ هو العذر الوحيد لهؤلاء الذين يعتقدون حتى الآن ان أفريقيا السوداء قارة بلا تاريخ ، أو ليس لها على الاقل تاريــخ معروف ..

ومازال هذا الجانب من التاريخ الحضارى للانسان محل تجاهل من العلماء المؤرخين والدارسين فى عالم اليوم .. ولم يحظ هذا التاريخ حتى الان بالاهتمام **الواجب ..**

ولكن آن الاوان لكى يعرف الناس فى جميع أنحاء العالم ، تلك الحكمة الافريقية القديمة ، التى ظلت تتنقل بين الاجيال :

« اذا كنت لا تعلم فتلك مصيبة ..
واذ لم ترغب فى ان تعلم فالمصيبة أعظم » .. !

المؤلفة

★ استاذة فى التاريخ والحضارات وعلوم الانثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية (أى العلوم التى تهتم بدراسة النظم الاجتماعية والعقائدية للمجتمعات الانسانية)

★ تقوم بالقاء المحاضرات فى عدة جامعات فى انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة الامريكية .

★ نشرت عدة مؤلفات فى تاريخ الحضارة الانسانية ، أهمها كتاب بعنوان : « بحث فى تاريخ انجلترا فى القرن الثالث عشر » .

المترجم

★ وكيل الوزارة بقطاع النقل البحرى سابقا . من مواليد يناير ١٩٣٣ . ليسانس الحقوق ١٩٥٥ ودبلوم عال فى القانون البحرى .

★ له (١٧) كتابا مؤلفا ومترجما فى علوم النقل البحرى ، واغلبها كتب رائدة غير مسبوقة باللغة العربية فى هذا الموضوع .

★ له (٨) كتب فى الادب والمسرح والفولكلور والعرائس .. وكتب العديد من سيناريوهات الافلام التسجيلية عن التاريخ المصرى القديم وأعلام العرب وقصص القرآن ، بالاضافة الى العديد من البرامج الثقافية بالتليفزيون والاذاعة المصرية ، وهيئة الاذاعة البريطانية بلندن .

★ نشرت له عشرات من القصص القصيرة المؤلفة والمترجمة منذ الخمسينات وحتى الان فى مجلات : روز اليوسف وصباح الخير والكاتب والقوات المسلحة والاذاعة والتليفزيون وكتب للجميع .. وجرائد المساء والشعب والجمهورية .. كما كتب عشرات المقالات المتخصصة فى مجلات المسرح والثقافة وجرائد الاهرام والاخبار والجمهورية .

كتب للمترجم

(أ) فى الفن والادب :

١ — ألوان من النشاط المسرحى فى العالم

٢ — خيال الظل والعرائس فى العالم

٣ — زرع النوى — « رواية أدبية »

٤ — الرقص والحضارة « دراسة تاريخية . فولكلورية . اثنولوجية »

٥ — مساخر من العاصمة والاقاليم « مجموعة قصصية »

٦ — عذراء سرابيوم « مجموعة قصصية » « تحت الطبع »

٧ — الفودو .. واعمال السحر فى افريقيا « مترجم » تأليف : جيرت شنيزى

٨ — الاسلام فى ممالك وامبراطوريات افريقيا السوداء « مترجم ».. تأليف : جوان جوزيف .

(ب) فى الاقتصاد والعلوم البحرية :

١ — اقتصاديات النقل البحرى .

٢ — أساسيات النقل البحرى والتجارة الخارجية .

٣ — قاموس المصطلحات الفنية البحرية .

٤ — قاموس المصطلحات التجارية الدولية .

٥ — دراسة تحليلية عن عقد البيع البحرى « فوب » .. « محاضرات »

٦ — عمليات نقل البضـائع على سفن الخطـوط المنتظمـة .. « محاضرات »

٧ — عمليات نقل البضائع على السفن المستأجرة .. « محاضرات»

٨ — أعمال الموانى وعمليات الشحن والتفريغ .. « محاضرات »

٩ — قطاع النقل البحرى فى مصر .. « محاضرات » .

١٠ — سند الشحن .. دراسة تحليلية .. « محاضرات »

١١ — محاضرات فى البيوع البحرية .

١٢ — القانون البحرى « ترجمة » — تاليف : ايمانويل دفورسكى

١٣ — تاجير السفن « ترجمة » تاليف : بيرجر نوسوم

١٤ — انتاجية الرصيف « ترجمة » — تاليف : دى مونيه

١٥ — الرقابة على الاعمال البحرية عن طريق الميزانية « ترجمة » تاليف : ج . سيموندز

١٦ — سفن الحاويات والموانى المعدة لاستقبالها « ترجمة » تاليف : أ . ايفانس .

١٧ — مصطلحات النقل البحرى والتجارة الخارجية .

١٨ — حساب الوقت والعوامل المؤثرة فيه « تحت الطبع »

فهـــرس

رقم الايداع ٨٤/٢٥٣٤ بدار الكتب

المطبعة الفنية ت : ٩١١٨٦٢